دراسة حول تاريخ الضِّنِّيّة
وتوثيق معالمها الأثريّة والتراثيّة

مقدّمة

تهدف هذه الدراسة الميدانية، التي استغرق إعدادها نحو عامٍ تقريباً، بتكليف من اتحاد بلديّات الضنيّة وبناءً لمقترحنا، إلى تسليط الضوء على تاريخ الضنيّة وتوثيق معالمها الأثريّة وأبنيتها التراثية، وذلك استناداً إلى المصادر التاريخيّة والمخطوطات والوثائق القديمة التي وقف عليها المؤرّخ الأستاذ الدكتور عمر تدمري من جهة، وأيضاً إلى الدراسة الميدانيّة التي قمنا بها في المنطقة من خلال التجوال والبحث في كل بلدة وقرية على امتداد مساحة القضاء، وتوثيق المعالم والأبنية فيها وتصويرها بشكل دقيق وتحديد حقباتها الزمنيّة بناءً للمعطيات التاريخيّة والعمرانيّة.

وتنقسم الدراسة في داخلها إلى ثلاثة أقسام:

- الأوّل: القسم الموثّق الذي يتناول صفحات من تاريخ الضنيّة وتسميتها وأعلامها وأحداثها التاريخيّة في العصور الوسطى مروراً بالفترة العثمانية ووصولاً إلى فترة الإحتلال الفرنسيّ.
- الثاني: القسم الأثري والمعماري الذي يؤرّخ بشكل موجز للحقبات التاريخية القديمة قبل الإسلام في الضنيّة من خلال تحليل المواقع الأثرية التي تمّ توثيقها فيها، كما يتناول الخصائص التقليديّة لتخطيط قراها وعمارة مساكنها التراثية.
- الثالث: يضمّ قائمةً إحصائية مصوّرة للمعالم الأثريّة والأبنية التراثية في بلدات وقرى الضنيّة (حسب تسلسل أسماء القرى الأبجديّ مع نبذة عن أصل هذه التسمية).

القسم الأوّل

صفحاتٌ من تاريخ الضِّنِّيّة

المؤرّخ أ. د. عمر عبد السلام تدمري

الموقع الجغرافيّ

تقع «الضنّية» في الشمال من الجمهورية اللبنانية، في منطقة المنحدرات الغربية لأعلى قمم جبال لبنان حيث قمة القرنة السوداء التي ترتفع 3088 مترًا عن سطح البحر، يحدّها شمالًا: جبال وسهول عكار، وشرقًا: الهرمل وبعلبك، وجنوبًا: جبّة بشرّي والزاوية، وغربًا: الزاوية وبلدة المنية عند ساحل مرج السلسلة بسفح جبل تربل المشرف على مدينة طرابلس.

وتُعدّ مرتفعات الضنّية وأوديتها جزءًا طبيعيًّا من سلسلة جبال لبنان الغربية، ونظرًا لخُلوّها قديمًا من السكان إلّا نادرًا لمناخها القاسي شتاءًا، وتنوّع تضاريسها وكثرة غاباتها التي تأوي إليها الوحوش الضواري والحيوانات المفترسة، فلم تُعرف باسم خاص بها يميّزها عن المناطق المحيطة بها، ولهذا كانت تعرف بجبل لبنان الذي يعني البياض حيث يكسو الثلج هاماتها أكثر أيام السنة، وهذه التسمية كانت تُطلَق قديمًا على كامل سلسلة جبال لبنان، من النهر الكبير الجنوبي شمالاً حتى نواحي صور وجبل عاملة جنوبًا، وليس من دليل علميٍّ مقنع يؤيّد ما يقال إن اسم «مقاطعة الضنّية» يوناني الأصل، فتاريخ هذه الجبال يعود إلى ما قبل حكم اليونان لها بعدّة قرون.

الضنيّة في العصور القديمة قبل الإسلام

فقد جاء في أقدم أثرٍ مدوَّن عن «لبنان الجبل» لأيام «تفلات بلاسّر الأول» ملك آشور بين سنتي 1114 و1070 ق.م. ما يلي:

«ذهبت إلى لبناني (لبنان) حيث قطّعت الأشجار للحصول على خشب الأرز اللازم لهيكل انو وأدد، الإلَهتين العظيمتين، وحملت ذلك إلى آشور، أتممت بعد ذلك سيري إلى بلاد أمورّو (سورية) وقد أخضعت بلاد أمورّو بكاملها».

وبعد بضعة قرون أتى ملك آشور «نصربعل الثاني» بين 883–859 ق.م، وانتصر على ملك كركميش الحثّي، وملك حثينا، وملك أريبو، وهي حثّية أيضًا، حتى وصل إلى أمورّو (سورية)، فأمر بنقش ما يلي:

«... ثم استوليت على جبل لبنان بكامله، ووصلت البحر الكبير الذي يحاذي بلاد أمورّو، وقد غسلت أسلحتي في مياه البحر العميق وقدّمت ضحايا من الكباش لجميع الآلهة، وكانت الضريبة التي حصلت عليها من مدن الساحل – صور وصيدا وجبيل ومحلّاتا (طرابلس) ومن أرواد، التي هي جزيرة في البحر– تتكون مما يلي: الذهب والفضة والقصدير والنحاس والأوعية النحاسية والثياب الكتانية المزخرفة الحواشي، والقرود والسعادين، وخشب الأبنوس وخشب اللارصيني».

ويشير الملك في النقش إلى أنه صعِد إلى جبال أمانوس، حيث قطع الكثير من الأشجار من الأرز والشربين، وبعث بذلك كله إلى بلاده.[1]

[1] لبنانيات، د. نقولا زيادة، ص169.

ويستوقفنا ما جاء في أوّل النقش قوله: «*ثم استوليت على جبل لبنان بكامله*»، أي ليس ما يُعرف بجبل الأرز في جبّة بشرّي والحَدَث فحسب، بل كل سلسلة الجبال حيث توجد غابات الأرز بكثرة في جبال الضنّية ولا تزال.

وما يقال عن «الضنّية» يقال أيضًا عن «عكار» و«الكورة» وغيرها، فهل يعرف أحد ما هو اسمها قبل الفتح الإسلامي؟

قدوم اليمنيّين وتسمية الضّنيّة

إن الباحث في تاريخ «لبنان» إبّان العصور الإسلامية الأولى يجد صعوبةً بالغةً في جمع مادّته، لضحالتها وتَبَعثُرها في المصادر، فكيف إذا كان البحث عن بقعة صغيرة من بلاد الشام كانت شبه خالية من السكان، مثلها مثل عكار والكورة، وجُبّة بشرّي وبلاد البترون وجبيل وكسروان وغيرها؟

وإذا كانت مدن «لبنان» الرئيسية لم تحظ بوصفٍ شافٍ لكيفية فتْحها وتمصيرها بعد ذلك، فلا غَرابة في أن تغيب معلوماتنا عن قرى ومزارع الضِّنّية لعدّة قرونٍ متواصلة حتى أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، حيث نبدأ بالوقوف على بعض أسماء القرى والأماكن التي لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة.

فلا «الواقدي» ولا «اليعقوبي» ولا «البلاذُري» ولا «خليفة بن خياط» ولا «الأزْدي» ولا «ابن أعثم الكوفي» ولا «ابن جرير الطبري» ولا «المسعودي» ولا غيرهم وغيرهم من المؤرّخين الأوائل ذكروا «الضِّنّيّة» أو قرية من قراها!

لذلك، علينا أن نتلمّس بعض المُعْطَيات ممّا كان يدور من أحداثٍ قُرب وحول

«الضِّنّية». ويستوقفنا في حركة الفتوحات الإسلامية الأولى لبلاد الشام الحضور القويّ للقبائل العربية اليمنية، إذ أرسل أوّل الخلفاء الراشدين «أبو بكر الصِّدّيق» g، الصحابيّ «أنسَ بنَ مالك» إلى اليمن يدعو أهلَها للجهاد، فخرجوا سُراعًا مُلَبِّين جناحًا جناحا، وقبيلةً قبيلة، وبرز الأَزْد في عددٍ كبير وجمْعٍ عظيم، حسب تعبير المؤرّخ «محمد بن عبد الله الأزْدي» في كتابه «تاريخ فتوح الشام» (ص 9 و16)، والذي لم يصلنا منه سوى جزءٍ يسير، وضاع أكثره، وكان يؤمَّل أن نقف منه على وصْفٍ شامل لحركة الفتح في ساحل الشام، وخاب أمَلُنا في شيخ المؤرّخين «ابن جرير الطبري» فلم يذكر كلمةً واحدة عن «لبنان» أو الفتح الإسلامي لساحل دمشق والشام في كتابه الضخم «تاريخ الرُّسُل والملوك» (10 مجلَّدات)، مع أنه نزل بيروت وحفظ القرآن الكريم فيها، إلى أن أخبرنا «البلاذُري» في كتابه «فتوح البلدان» أن الذي فتح طرابلس الشام هو القائد الصحابي «سُفيان بن مجيب الأزْدي» في أوائل خلافة «عثمان بن عفّان» g حوالى سنة 25هـ./645 م. و«سفيان» من أَزْد اليمن، وهو الذي بنى الحصن المعروف باسمه فوق نهر طرابلس بأيدي جنوده من الصحابة والتابعين، ولا شك في أنّ بينهم من أبناء قبيلته اليمنية، إن لم يكن أكثرُهُم، وكان «سفيان» يتولّى القضاء بمدينة بعلبك قبل فتح طرابلس، وهنا يُطرَح السؤال: ما هي الطريق التي سلكها بجنوده من بعلبك إلى طرابلس، وبينهما جبال الضّنّية؟

ويُطرَح سؤال آخر: هل فُتحت طرابلس قبل الضّنّية، أم العكس؟
ومتى استوطن اليمنيون الجبال التي عُرفت بالضّنّية بين بعلبك وطرابلس؟
هل كان ذلك بعد فتح بعلبك (15هـ.) أم بعد فتح طرابلس (25هـ.)؟
ويبقى السؤال الأهمّ: لماذا سُمّيت الضّنّية بهذا الاسم؟

يقول المؤرّخ الحافظ «شمس الدين الذهبي» (ت 748هـ.) في كتابه «المشتبه في الرجال» (408/2، 409): «بنو ضَنّة: بالضاد المُعجَمَة -أي المنقوطة-

المكسورة، ونون مشَدَّدة، وهم خمسة قبائل:

ففي قُضاعة: ضِنّة بن سعد هُذَيْم.

وفي عُذرة: ضِنّة بن عبد.

وفي هُذَيل: ضِنّة بن عَمرو.

وفي أسَد: ضِنّة بن الحلّاف.

وفي الأزْد: ضِنّة بن فُلان».

ويقول كاتب هذه المطالعة «عمر تدمري»: إن من قُضاعة: «عكار القُضاعي» الذي أقطعه الخليفة الأموي «مروان بن الحَكَم» جبالَ وسهولَ عكار بين ساحل البحر وحمص، وسُمّيت باسمه، بين سنتَي 64-65هـ.[1]

ومن عُذْرة: مَزْيَد العُذْري البيروتي، وهو جدّ «العباس بن الوليد بن مَزْيد» الذي كان مقرئًا وعليه قرأ «الطبري» القراءات.

ومن الأزْد: سفيان بن مجيب فاتح طرابلس.

ومن الأزْديّين أيضًا: الصحابي «أبو هريرة» وهو «الدَّوسي» من اليمن، وقد رابط مع أنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، وأبي الدرداء الأنصاري، في حصنٍ بمرْج السلسلة الواقع بسفح جبل تُرْبُل على ساحل البحر.

ومن اليمنيّين: «إبراهيم اليَمَاني» من أصحاب «سُفيان الثَّوري» وهو الذي أشار عليه أن يُرابط بساحل الشام. و«جُنادَة بن أبي أُمَيّة الأزْدي الدَّوْسي» وهو فاتح جزيرة رودِس وجزيرة كريت، وجزيرة كيزيكوس، وكلها في عهد معاوية بن أبي سفيان. و«ذو الكَلاع الحِمْيَري» وهو ممن شارك في فتح بعلبك، وغيره. وكل هؤلاء من بني ضِنّة، وإليهم تُنسَب «الضِّنّية» بجبالها وودیانها وقُراها حسْب قول «الذهبي»، وليس لبني ضمرة كما قال الشيخ محمد كامل البابا في كتابه عن طرابلس.

---

[1] ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب- مخطوط بمكتبة آياصوفيا رقم 6036.

وقد نقل المؤرّخ النَّسّابة «ابن ناصر الدين الدمشقي» في كتابه «توضيح المشتبه» (10/5) ما ذكره «الذهبي»، وأوضح صراحةً بما لا يَدَع مجالًا للشك أن جبل الضّنّيين المنسوب إلى بني ضِنّة هو: «*الجبل الذي على ساحل بحر الشام من أعمال طرابلس فيه عدّة قُرَى، يُنسَب إليه: إبراهيم بن عسكر الضِّنِّي...*»، وهذا القول الواضح يُبْطِل أيّ قولٍ آخر، ويُلغي أيّ تأويل.

وكان «الذهبي» بعد أن ذكر الأوائل من قبائل الضِّنّيّين، قال: إن من المتأخّرين من بني ضِنّة: «عمر بن حَمَل الضِّنّي» مات يوم فتح طرابلس (688هـ./ 1289م.)، وذكره المؤرّخ «قُطْب الدين اليونيني» في كتابه «ذيل مرآة الزمان» (ج 230/1) ونَسَبَه إلى قرية بقرصونا قائلًا: «عمر بن حَمَل البقرصوني من جبل الضِّنِّيين».

وقد حضر «عمر البقرصوني» و«قُطب الدين اليونيني» حصار طرابلس بقيادة السلطان المنصور قلاوون، وفي أثناء ذلك روى «البقرصوني» لليونيني هذه الطُّرفة عن شيخه «أبي الرَّوح عيسى بن أحمد بن إلياس اليونيني» الزاهد الكبير (ت 654هـ./ 1256م.) فقال: «*إن الدودة ركبت أشجار التفاح عند أهل بقرصونا وأعطَبَتْها، فسألوا الشيخ عيسى أن يكتب لهم حِرزًا، فأعطاهم ورقة مَطْويّة صغيرة على شكل حِرْز، فشمّعوها، وعلّقوها على شجرة، فزالت الدودة عن الوادي بأسره، وأخْصَبَت أشجار التفاح بعد أن يبست وحملت حمْلًا مُفْرِطًا، وبقوا على ذلك سنين في حياته وبعد وفاته، ثم خشوا من ضياع الحِرز ففتحوه لينسخوه، فوجدوه قطعةً من كتابٍ ورد على الشيخ من حماة، فندموا على فتحه، وشمّعوه وعلّقوه من جديد، فما نفع، وركبت الدودة الأشجار*»!

ولعلّ اسم «الضِّنّيّة» أكثر الأسماء التي نالها الغَلَط والتحريف والتصحيف في

المصادر التاريخية، وذلك ناتج عن النُّسّاخ، وعن المحقّقين لكُتُب التراث ومعظمهم ليسوا «لبنانيين»، بل أغلبهم مصريّون لا يعرفون أسماء الأماكن في بلاد الشام، ومنها «لبنان» فيغْلَطون في كتابة أسمائها، وهو كثير في عشرات المصادر التي وقفنا عليها خلال مطالعاتنا لسنوات طويلة، ولم يقتصر التحريف على كلمة «الضّنّية» أو «الضّنّيين» فحسب، بل طال أيضًا بلدة بخعون، ووادي مْرِبِّين.

فمن التحريفات التي طالت جبلَ الضِّنّيّة ما ورد في ترجمة «أبي العباس أحمد بن محسِّن بن مَلِيّ الأنصاري البعْلبكّي الشافعي» أنه توفي سنة 699هـ./ 1299م. بقرية من جبل الظنين (!) وقيل: من جبل الظنيني (!) –وكان البعلبكي هذا فرّ من بعلبك ولجأ إلى بخعون فمات بها، فورد اسم «بخعون» بلفظ «بجعون» (بالجيم)، واسم الجبل: (جبل الطبين)![1]– وأورد المحقّقان الترجمة نفسها للبَعْلَبكّي، في (طبقات الفقهاء الشافعيّين، لابن كثير) وذكرا بخعون على أنها «تجعون» (بالتاء المثنّاة والجيم)! وجبل الضنّيّة عندهما: جبل المصيصي؟! وفي (عِقد الجُمان، لبدر الدين العَيْني 4/ 108) أورد المحقق جبل الضنّية بـ (جبل الظنين)! كما أثبت محقّق كتاب «ذيل مرآة الزمان» د. حمزة عباس –وهو عراقي– بخعون على أنها «بجعون»! بل إن المحقق الدمشقي المعروف د. صلاح الدين المنجّد غلط في تحقيقه لكتاب (تراجم الأعيان، للبوريني 2/ 63) فذكر الشيخ «أحمد النجعوني الطرابلس الضنّي». وأثبت محقق (المنهل الصافي لابن تغري بَردي 2/ 67): «جبل الظنين»، وذكره «البرزالي» في (المقتفي على كتاب الروضتين –بتحقيقنا) جبل الظنّيين. وقد صحّح «الذهبي» هذه النسبة إلى «جبل الضِّنِّيّين»[2].

---

[1] انظر: ذيل طبقات الفقهاء الشافعيّين، للعَبّادي، بتحقيق د. أحمد عمر هاشم، و د. محمد زينهم محمد عزب –ص 126.

[2] انظر: تاريخ الإسلام –بتحقيقنا– المجلّد 52/ ص388.

والأعجب من كل ما تقدّم ما ذكره «الأَسْنَوي»[1] وهو يترجم لابن مَلِيّ البعلبكي المتوفَّى ببخعون، فقال إنها «نخعون من جبال الطنيبيين، بياء النَّسَب بعد الطن؟ وبعد الباء ياء ونون الجمع، وهو جبل بين طرابلس وبعلبك، أهله رافضة»! وقد علّق محقّق الكتاب صديقنا د. عبد الله الجُبُوري العراقي على لفظ «الطنيبيين» بالحاشية فقال: «*كذا في الأصول، ولم أجدها في كتب البلدان*»!

وأقول: هذا تخليط فاحش من المؤلّف الأَسنَوي المصري، وتقصير في التحقيق من الدكتور الجُبُوري، رحمه الله. ومثل هذا كثير.

والخلاصة مما تقدّم تؤكّد على أن «الضّنّيّة» و«الضِّنّيّين» – بكسر الضاد – اسم للجبل الذي يقع شرقيّ طرابلس، بينها وبين بعلبك، والنسبة المشهورة الآن هي: «الضِّنّاوي» بدل «الضِّنّي».

الحضور التاريخيّ للضّنّية في عصر المماليك

[1] طبقات الشافعية 2/ 463.

عهد السلطان الظاهر بيبرس

يبدأ الحضور التاريخي لجبال الضِّنّيّة في المصادر في عهد السلطان الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقداري، وبالتحديد بدءًا من حوادث سنة 666هـ./ 1268م. إذ يذكر «ابن عبد الظاهر» في «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» –ص 30– «الضنين»، و«النُّوَيري» في «نهاية الأرب» (305/30) «الطنيين» فقالا إن الملك الظاهر وصل في أولى حملاته على طرابلس يوم 15 من شهر شعبان 666هـ./ أول أيّار 1268م. وكان «بوهمند السادس» أمير طرابلس وأنطاكية معًا قد كثُرت تعدّياته على بلاد المسلمين واستولى على البلاد المجاورة لطرابس، منتهزًا فرصة استيلاء التتار على الشام، وكان من أكبر أعوانهم، وأشدّهم نكاية في المسلمين، واستولى على عدّة حصون وقرى بنواحي أنطاكية وطرابلس، وأخذ اللاذقية وبنى في مينائها برجًا حصينًا، وأضاف إلى ذلك أنه اعتقل وفدًا للسلطان وأرسل رجاله بالأغلال إلى «هولاكو» ملك التتار، وقام بتوعير الطرقات التي يتوقّع أن يأتي منها السلطان، فجاءه السلطان من حيث لا يحتسب، فقد عبر البقاع إلى بعلبك ومنها صعّد في جبال الضِّنّيّة، وكانت مَكسُوّةً بالثلوج، ولم يتأخّر عنه أحد من عساكره في هذه الجبال الصعبة كما يصفها «ابن عبد الظاهر»، وهو يستشهد بقول الشاعر «المتنبّي»:

عقاب لبنان وكيف بِقَطْعها ... وهو الشتاء وصَيفهنّ شتاءُ

لبس الثلوجُ بها عَليَّ مسالكي ... فكأنها ببياضها سوداءُ

ويضيف «ابن عبد الظاهر» إلى ذلك قوله: «إن العساكر لما طلعت الجبال اشتدّ عليهم الحَرّ فلم يجدوا سوى الثلج، فأكل منه الناس وأطعموا منه خيولهم».

ولما وصل الملك الظاهر إلى مشارف طرابلس الشرقية عند هضبة القبّة قاتَلَ الفرنج واقتحم الحصن (قلعة طرابلس) وخرّبه بحيث لم يعُد صالحًا للاحتماء به، وهدم

قناة الماء الرومانية التي كانت تصل مياهها إلى داخل القلعة. وفي أثناء ذلك انحدر إليه النصارى من الجبال المجاورة وأغاروا على عسكره من الخلف، فجرّد إليهم فرقة قامت بمطاردتهم في المغاور الصخرية الحصينة، وخرّبوا قراهم وأخذوها بالسيف، حتى وصلوا إلى حدث الجُبّة وخرّبوها.

وهنا يقع التحريف في المصادر عند المحقّقين فصارت «الحَدَث»: «الحرث» بالراء. ولم يعرف بعضهم أن «الحَدَث» في جبال الأرز، فقال إنها الحدث التي في إقليم الثغور عند أنطاكية!

حاصر بيبرس طرابلس تسعة أيام، وفي أثناء ذلك أرسل الفرنج إلى «بوهمند» يطلبون منه سرعة الحضور من أنطاكية، فأتى إلى طرابلس بحرًا، وكان لبيبرس جواسيس داخل المدينة أخبروه بقدوم الأمير، فأمر بيبرس جنوده بالنفير ليلًا، فأبقوا على الخيام منصوبة، والنيران متَّقِدَة، وأسرع إلى أنطاكية ففتحها في الرابع من شهر رمضان 666هـ./ 18 أيار 1268م. وعاد فأغار على صور في السنة التالية، ثم على عكا، وعاد شمالًا فانتزع قاعدة الإسماعيلية «مصياف»، وفتح حصن الأكراد، ثم حصن عكار، وتسلّمه ليلة عيد الفِطر/ أول أيار 1271م. ومن هناك عبر إلى جبال الضِّنّية وهو بعدّة الحرب مع عساكره، وقد ترك المعدّات الثقيلة في مكانها لصعوبة حملها أو جرّها عبر الأودية والجبال الوعرة والصخور، ورقي بجنوده الجبلَ المعروف بجبل الأربعين، وانحدر منه فأخذ «بقرصونا» في سفح الجبل، وهي على منحدرٍ جارف، وعُلُوٍّ يقارب ألفي متر، ويتّصل جبلها بجبال عكار، وقد أخطأ بعضهم حين اعتبر أن فتح بقرصونا لا قيمة له. وعبر بيبرس بلاد الضّنّية منحدرًا إلى طرابلس لمحاصرتها من جديد، ولكي يشحذ هِمَم عساكره، قام بالإنفاق عليهم نفقة كاملة، وخيّم عند طرابلس لحصارها، فبلغه خبر وصول ملك إنكلترا «إدوَرد» في البحر إلى عكا، ولهذا آثر الرحيل عن طرابلس، فكان قَدَرُها أن تبقى بيد الفرنج نيّفًا ومئة وثمانين عامًا

حتى يأتيها المنصور قلاوون ويفتحها، وقد جاء إليها من دمشق في عِزّ الشتاء والبرد، واجتاز جبال الضِّنّيّين حتى وصل إلى هضبة القبّة وتم الفتح، فسُمّيت الهضبة بقبّة النصر تيمُّنًا.

وجاء في كتاب التهنئة بالفتح وصفٌ للطريق التي عبرها «قلاوون» ما هو نصُّه: «*... وقصدناهم في وقتٍ جُمعت فيه أشتات الشتاء، ولبست الأندية ندى الأنداء، في طريق خفِيّة المدارج، أبيّة المخارج، مُلتبسة المَسَالك، ممتنعة على السالك، صيفها شتاء، وصباحها مساء، شايبة المفارق بالثلوج، مزرورة الجيوب على أكمام الغيوم من فروج*»[1]. ومن كتاب «شافع بن علي»: «*... والثلوج قد أظلمت لبياضها المسالك، وقطعت الطُرُق دون السالك، والأمطار مُنسكبة كأفواه القِرَب، والجِمال بثِقَل أحمالها بمرسل القطار قد حَزَّها القَتَب، والسيول متوافية من جبال تلك الأودية، متراسلة من تلك الأندية، لا الشمس تظهر فتُصْطَلَى جمرتُها، ولا النار تشُبُّ فترى مع ما تكتسبه من بياض الثلوج حُمرتُها ...*»[2].

المجاهدة عائشة البشنّاتية

وفي عهد بيبرس (676-658هـ./ 1260-1277م.) يمكن أن نضع سيرة المرأة المجاهدة «عائشة البشنّاتية» المنسوبة إلى بلدة «بشِنّات» (المعروفة حالياً بـ بشناتا) في أعالي جرود الضنّية، والتي وردت حكايتها في السيرة الشعبية المطبوعة للملك

---

[1] لبنان من السقوط بيد الصليبيين -تدمري- ص 495.

[2] الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور -بتحقيقنا- ورقة 115 أ و ب.

الظاهر، وهي تروي بعضًا من سيرتها البطولية في مقاتلة الفرنج المحتلّين لطرابلس ونواحيها، وكانت ترتدي لباس الفرسان من الرجال وتتنكّر، وتنزل من أعالي الضِّنّية وتغير على الفرنج في عدّة أماكن وتنال منهم، وهي تعلن ولاءها لملك عصرها المجاهد الظاهر بيبرس، فيما كان أخوها المقدَّم «حسن» يبغض السلطان ويكيد له، ويتعاون مع الفرنج ضدّ أبناء جلدته، وتغلّبت عليه بشجاعتها ودهائها حتى انقلب على الفرنج وقاتلهم، ونقرأ في السيرة المذكورة عن المقدَّم «النَّسْر بن عجبور»، والمقدَّم «جمال الدين شيحة»، وكلّهم يذكرهم الرعيل الأول من الطرابلسيين، ولهم آثار ترمز إليهم، ومنها: قبر عائشة الذي أزيل في القرن الماضي، وكان في حارة النصارى يقصده الناس في الأعياد والمناسبات للتَّنزُّه في ما يُسمَّى: «سَيرَان رمضان»، و«أربعاء أيوب» Å، وعيد المولد النبوي، ورأس السنة الهجرية، وغيره. ولا يزال قبر أخيها «حسن البشنّاتي» داخل مدرسة صغيرة للصلاة في محلّة عَقَبَة الحمراوي بطرابلس، وكانت مدرسة النسر بن عجبور تحت قبوة في الطريق إلى قهوة البحصة على نهر «أبو علي»، وقد هُدمت بعد «طَوفة» النهر التي حدثت في أواخر سنة 1955 وعُثر بداخلها على (128) قطعة نقدية ذهبية باسم سلطان دولة المماليك «قانصوه الغوري»، وفي قرية «بشْمِزّين» بالكورة مسجد صغير يحمل اسم «جمال الدين شيحة» حتى الآن.

أمّا «جبل» أو «جبال الأربعين» في قمّة جبال الضّنّية فتُنسَب إلى أربعين شهيدًا كانوا – حسب المَرويّات الشفهيّة غير الموثّقة – إمّا من الصحابة الذين أتوا فاتحين، أو من جنود الظاهر بيبرس الذين كانوا معه حين انتزع «بقرصونا» من الفرنج، أو من جملة المقاتلين الفدائيّين الذين كانوا مع المجاهدة عائشة البشنّاتية، والله أعلم. ولا تزال المغارة المعروفة «بمغارة عايشي» (حسب تسميتها في خرائط الجيش اللبناني) في أعالي الجبال المشرفة على «وادي الإجاص» بين «بقاع صفرين» والطريق المؤدية إلى «إهدن» شاهدةً على المعسكر الذي أقامته المجاهدة عائشة في

هذا المكان والذي تتسع مغارته لأكثر من خمسين جندياً، وكان بها آثار جنازير وحلقات معدنية حتى وقت قريب.

واقعة المرجة في عهد السلطان قايتباي

ومن الوقائع اللافتة التي جرت في عهد المماليك، وبالتحديد في سنة 1489م. (895–896هـ.) في عهد السلطان قايتباي أيضًا، ما انفرد البطريرك «اسطفان الدويهي» بذكره في تاريخه، بلغته العربية الضعيفة والركيكة، الأقرب إلى العامّية، ونذكر نص الواقعة بحرفيّته، وهو:

«في هذا العصر تأملوا مقدَّمين الضنّية جبة بشرّاي، فوجدوهم مفتونين مع مقدّمهم عبد المنعم بسبب الأديان، فجمعوا رجالهم وزحفوا بهم إلى نحو الجُبّة ليحكموها ويدوّروها للإسلام، فإن الضنّية من بدء الفتح الإسلامي يحكمها السُّنّية، فخرّبوا ديورتها وكنايسها وطردوا منها النصارى، وأخذوا السكنة بها، واثروا بعمل ذلك أيضًا بجبة بشرّاي التي أهلها منذ بدئ النصرانية لم زالوا حافظين على سر الإيمان.

فلما راموا ذلك مقدمين الضنية لم اختفى أمرهم، فجمع المطران يعقوب المشايخ وكشف لها قصد الضناونة فاتفقوا كلهم بكلمة واحدة الى القتال والمقاومة، ولو الزم الامر ان يبذلوا بأجمعهم نفوسهم في استحباب دين المسيح. فاستنجدوا في المقدم، فلم أراد ينجدهم. عند ذلك انضم اليهم بعض من الضياع القريبة وصعدوا في السلاح إلى سيدة الحصن، فقدموا الطلب له ولوالدته وانقسموا أربع قسمات: فوقفوا الواحدة عند البويب وأمروها بالهزيمة أمام العدو، واكمنوا في القسمة الآخرة تحت سيّدة الحصن بين الشرق والقبلة، والقسمتين اكمنوا وراء الثلاثة التي بين إهدن ومرجة تولا.

فلمّا جرّدوا الضناونة العسكر على أفقا ووصلوا إلى حدود إهدن قاتلهم العسكر الذي كان في طريقهم عند البويب، وبعد قتال يسير انهزموا لما وراء حتى وصلوا للمرجة، والعدو قاحم باثرهم بشبه الفراعنة ضد الاسرائيليين. فلما وصلوا الى المرجة

عند ذلك قامت عليهم الرجال من الجبلين وقتلوهم كلهم في وسط المرجة ولم يخلص منهم الا اثنين الذين عطيوا الخبر في طرابلس والضنّية.

عند ذلك اجتمعوا النصارى والقوا القتلى وخيلهم وأثرهم في مغارة قريبة وطمّوا بابها، ونقلوا الفين من مرجة تولا الى الطريق السالك، ثم حرّروا المرجة وقلبوها عن آخرها، فلم يبقا للقتلى اثراً واضحاً.

ولمّا كان اليوم الثالث صعدت الكشافة من طرابلس واذ لم يجدوا لهم أثراً ارتضوا منهم بالمال وعادوا إلى طرابلس لأن التهديد والتعدي كان من الضناونة».[1]

واللافت أن هذه الحادثة الخطيرة انفرد بتدوينها البطريرك الدويهي، إذ لم نجد لها ذِكراً في تواريخ دولة المماليك، ولا في عهد السلطان قايتباي، ولا في سيرة الأمير «إينال السلحدار الأشرفي» نائب السلطنة بطرابلس سنة وقوع الحادثة، ونحن نذكرها عملاً بالأمانة التاريخية.

وادي مربّين وأهميّته في عصر المماليك

ومن الأماكن التي ذكرتها المصادر الموثوقة عن عصر المماليك: «وادي مربّين» (بالباء المشدّدة بين الراء والياء)، وهو وادٍ في أعالي الطرف الشرقي من جبال الضنّية، يتاخم جبال الهرمل المعروفة في الوثائق المملوكية بجبال القَصَبيّين (نسبة إلى الأقصاب والأراضي الحرجيّة)، وبالوادي قرية مربّين، وهي ترتفع 1500 م. عن سطح البحر.

---

[1] تاريخ الأزمنة 364، 365 رقم 27.

وأصاب «مربّين» التحريف كغيرها من أماكن الضنّية في المخطوطات المملوكية، وأخطأ المحقّقون في كتابتها على الوجه الصحيح إلّا القليل منهم، فورد اسم الوادي: «مربين» (بياءين)، و«مرتين» (بالتاء المثنّاة)، و«قرنين» (بالقاف)، وغير ذلك.

وورد ذِكره لأول مرة قبل وفاة الملك المنصور قلاوون بوقت قصير في سنة 689هـ./ 1290م، إذ بعد فتح طرابلس أراد أن يفتح عكا على ساحل فلسطين، فأصدر مرسومًا لنائبه على الشام الأمير «شمس الدين الأعسر» أن يعمل مجانيق لقذْف الحجارة الثقيلة، ويجهّز آلات السلاح من «الزَّرْدَخاناه»، فجاءت الأخبار إلى نائب الشام من متولّي بعلبك أن بجبل لبنان واديًا يُسمَّى مربّين به أخشاب عظيمة يابسة، وأنّ لها ما شاء الله من السنين مقطوعة وهي قِطَع يابسة لا مثيل لها في غوطة دمشق ولا في بلاد الشام، فتجهّز الأمير «سُنقُر الأعسر» وسافر إلى بعلبك ومنها إلى وادي مربّين لإحضار الأشجار وتقطيعها ونَقْلها إلى دمشق، وأخذ معه جميع فلّاحي بعلبك والبقاع، وجبى من كل ضيعةٍ بغوطة دمشق مبلغًا يتراوح ما بين ألفَي درهم وخمس مئة لكِراء الفدادين التي تحمل الأخشاب، وجبى أموالًا من ضياع المرج ومن الفلّاحين، ونالهم شدّة عظيمة، وقاسى أهل بعلبك مشقَّةً عظيمة في الوصول إلى الوادي، ومات أكثر من (200) نفر من البرد والثلج. وبينما كان الأمير الأعسر يشرف على تقطيع الشجر في الوادي وجرّها، سقط عليه كمّيّة ضخمة من الثلوج، فأسرع إلى خيله وخرج من الوادي قبل أن تغمره، ولم ينقل أثقاله وخيامه، وتركها لينجو بنفسه، ولو تأخّر لهلَكَ هو ومن معه.

وغطّت الثلوج الأشجار والأخشاب وبقيت مطمورة حتى دخل فصل الصيف، ولما عاد لجرّها كان التَلَفُ أصاب أكثرَهَا، فجيء بالباقي إلى المزّة، ثم شُحِطَت بالميادين – كما يقول المؤرّخ المعاصر «ابن الجزري الدمشقي»– وكانت منظرًا مَهُولًا،

وقد رُبّع سفْل العود وسُفّط وهو نحو ذراع وثُلُث وأكثر، وكان الأمير «عز الدين الأفرم» وصل من مصر إلى الشام ليشرف على تقطيع الأخشاب وصُنع المجانيق بنفسه ونقْلها بسرعة إلى حصار عكا، ونال الناس من ذلك شدّة عظيمة، وكانت المفاجأة بعد كل ذلك أنها لا تنفع في عمل المجانيق. فلما وُلّي الأمير «سَنْجر الشجاعي» نيابة دمشق أدخل بعضها في عمارة دار السلطنة بالقاهرة، ثم نشر بعضها وعمل منه أبواب جامع دمشق الأموي التي في الرواق الثالث.

وقال الشاعر «علاء الدين الوداعي» في الأمير شمس الدين سُنقر الأعسر لما نقل الأخشاب من وادي مربّين هذه الأبيات:

مُربّين شكرًا لإحسانها فقد أطربتنا بعيدانها
ولولا الولاءُ لما واصَلَتْ ولا طاوَعَتْ بعد عصيانها
أتانا بها وهي مأسورةٌ وآسرةٌ أُسْدَ غيطانها
ولم نر من قبله غائرًا أتى بالديار وسكانها
ولا عدِمَتْ عدلَه مِلّةٌ يدبّر دولةَ سلطانها

وفي سنة 711هـ./ 1311م. صعِد المؤرّخ «شهاب الدين النُّوَيري» إلى جبال الضِّنّية واقترب من الوادي، فكتب عن ذلك ما يلي:

«أخبرني جماعة أثق بأخبارهم، في سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وأنا يوم ذاك بالقرب من هذا الوادي، أن به عودًا قائمًا طوله أحد وعشرون دراعًا، بذراع العمل، ودَوره كذلك، وأنهم حقّقوا ذلك بأن صعِد رجل إلى أعلاه، ودلّى حبلًا إلى الأرض من أعلاه، وأداروا الحبل عليه، فجاء سواءً، لا يزيد ولا ينقُص».

وكان في وادي مربّين – ولا يزال – أشجار من الأَرز، والصنوبر، والصفصاف،

والسرو، واللُّزّاب، وهو المشهور الآن.

من قرى الضّنيّة في المصادر المملوكيّة

ومن قرى الضِّنّية التي ورد ذكرها في المصادر التي تؤرّخ لعصر المماليك قرية: «عزْقا» أو «عزْقي»، إذ يذكر المؤرّخ «ابن قاضي شهبة» أن الملك الناصر حسن بن محمّد بن قلاوون أنعم على الأمير علاء الدين المارداني بقرية «عزْقا»، ليكون كامل محصولها السنوي على سبيل المرتّب تعويضًا له عن عزله عن نيابة دمشق سنة 763هـ./ 1362م. كما أعطاه قرية دومة بالشام[1].

كذلك ورد ذكر «دير نبوح» حيث وقف بأرضها الأمير سيف الدين الأكوز الناصري كرْم زيتون لصالح مدرسته التي بناها بطرابلس في عهد الملك الناصر محمّد بن قلاوون[2].

لقد كانت الضّنّية في موقعها بمثابة الحديقة الخلفية التي يأخذ منها الطرابلسيون حاجتهم من كافة أنواع الخضروات والفواكه والثمار صيفًا وشتاءً نظرًا لما تنتجه أرضها من ثروات زراعية، ومن أخشاب، كما كانت ملجأً يركن الطرابلسيّون إلى جبالها ومرتفعاتها حين يتعرّضون للخطر من الفرنج، ومن ذلك ما حدث في سنة 840هـ./ 1436م. عندما تناهت الأخبار بأن صاحب جزيرة رودس أعدّ أسطولًا بحريًّا كبيرًا لمهاجمة طرابلس، مما أثار الخوف والرعب في نفوس أهلها ودَفع بهم إلى ترك بيوتهم

---

[1] موسوعة العلماء والأعلام في تاريخ لبنان وساحل الشام –تأليفنا– تراجم القرن 8هـ.

[2] الموسوعة –رقم الترجمة 253.

والصعود إلى الضياع والجبال في الضنّية وغيرها[1]. وقد حصل مثل ذلك في عهد السلطان قايتباي سنة 877هـ./ 1472م.

أوقاف المسلمين في الضّنّية في عصر المماليك

في سنة 925هـ./ 1519م. تمّت كتابة «دفتر مالية لواء طرابلس»، وفيه إحصاء لسكان طرابلس من مسلمين ونصارى ويهود، وإحصاء آخر لسكان 26 محلّة تتألف منها المدينة، وحصر لعائدات الأوقاف الإسلامية على الحرمين الشريفين، وجوامع طرابلس وأبراجها الحربية، وبعضها إقطاع لأبناء العلماء في المدينة، والأوقاف التي نذكرها هي موقوفة منذ عصر المماليك، واستمرت في العصر العثماني، وكانت تلك الأوقاف تشمل قرى ومزارع في الضنية، منها:

– قرية بتحلين: منها حصة تيمار (إقطاع) لأولاد «صدر الدين الناسخ» و«علاء الدين الناسخ» 9 قراريط، بقيمة 900 قرش.

وحصة وقْف للبرج البلدي بطرابلس، أربعة قراريط ونصف القيراط، بقيمة 450 قرشًا.

ونحن نعرف أن «صدر الدين الناسخ» هو: «محمد بن محمد كمال الدين» المعروف بابن الناسخ الطرابلسي المالكي. كان أبوه قاضي القضاة المالكية بطرابلس، توفي بها سنة 914هـ./ 1508م، ولَه لوحة تحمل اسمه على جدار مدرسة سبط العطار بطريق السوسية في طرابلس بتاريخ سنة 862هـ.

أما ابنه «صدر الدين محمد» فقد توفي سنة 942هـ. وأخوه «علاء الدين علي»

---

[1] الروض الباسم –بتحقيقنا.

وقد ورث أولادهما حصة التيمار بقرية بتحلين.[1]

أما البرج البلدي فهو المعروف ببرج رأس النهر بساحل طرابلس عند مَصَبّ نهر «أبو علي».

– مزرعة خريبة اللوز ببخعون، وقف لصالح جامع بخعون.

لم تُحدَّد قيمة محصول الوقف، ولكنْ أفادتنا هذه المعلومة أن جامع بخعون قديم منذ عصر المماليك، وكانت تقام فيه خطبة وصلاة الجمعة.[2]

– قرية عزقي: وقف للحرمين الشريفين، وللجامع المنصوري الكبير بطرابلس. حصة الحرمين 18 قيراطًا، وحصة الجامع الكبير قيراط ضمن حصة ابن الزرعي 6 قراريط.

و«ابن الزُّرَعي» من الأُسَر المعروفة أصلها من بلدة زُرَع بالشام، استوطن بعض أفرادها بطرابلس في عصر المماليك.[3]

– قرية بحويتا «تيمار» لصدر الدين الناسخ، انتقل إلى أولاده، محصوله 3120 قرشًا.[4] وقد تقدّم التعريف بصدر الدين الناسخ.

– قرية إيزال: موقوفة لصالح برج اللاذقية، والبرج البلدي بطرابلس، و«تيمار»

---

[1] دفتر مالية لواء طرابلس، رقم 68 ص 120، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس 310–313.

[2] الدفتر –ص 121، دفتر الطابو 253 سنة 954هـ./ 1547م. –ص 120.

[3] الدفتر 68 ص 121، الدفتر 253 ص 121، آثار طرابلس الإسلامية 174، الدفتر رقم 380 ص 200، دفتر 1017 ص 200.

[4] دفتر 68 ص 122، دفتر الطابو 253 ص 122.

ربع حصة وقف البرج البلدي، محصوله 1600 قرش (دفتر 68 ص 130)، وفي (دفتر 548 ص 174) محصول حصة البرج البلدي 470 قرشًا. وحصة برج اللاذقية والبرج البلدي 800 قرش.

– مزرعة زينبية بالضنّية، وقف البرج البلدي، حصّته 250 قرشًا، وهو مبلغ مقطوع.[1]

– قرية داريّا تابع الضنّية، حصّة وقف أولاد شاهي إينالي، ووقف مسجد طشلق بطرابلس، قيراط 9، المال 500.[2]

وقوله: «شاهي إينالي» يعني: «السلطان إينال» الملقَّب بالأشرف، وقد تولّى سلطنة المماليك بين سنوات 859–863هـ./ 1455–1458م، وهو وقف حصة لنفسه ولمن بعده من أولاده بقرية داريا.

أما مسجد طشلق فهو المسجد الحجري الذي كان داخل المبنى الضخم المعروف بـ«الديبّو العسكري» وكان ثكنةً لعساكر قلعة طرابلس، وتقع عند السفح الشمالي الغربي من القلعة، وورد ذِكر المسجد في دفتر أوقاف وأملاك طرابلس في مركز الأرشيف العثماني باستانبول، رقم 551، مؤرّخ سنة 1572م.[3] وفيه ورد: «وقف مسجد طاشلُق ابن شاهين بن عبد الله الإينالي».

---

[1] دفتر 68 ص 68 و130، دفتر 253 ص 130، دفتر 548 ص 173.

[2] دفتر الطابو 253 سنة 954هـ. –ص 130.

[3] الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام من وثائق الأرشيف العثماني وأهمّيتها في رصد حركة العمران – تدمري– نشر في كتاب الأوقاف في بلاد الشام – عمّان بالجامعة الأردنية 1431هـ./ 2010م. – ص 49 رقم 18.

الضّنّية في العصر العثمانيّ

في عهد السلطان «سليمان بن سليم الأول» المعروف بالقانوني قسّم الأتراك العثمانيون بلاد الشام إلى ثلاث وحدات إدارية عُرفت بالإيالات (الولايات)، هي ولاية دمشق، وولاية حلب، وولاية طرابلس التي تكوّنت من خمسة ألوية، واستُعيض عن لقب «نائب السلطنة» في عصر المماليك بلقب «الوالي».

وفي عهد السلطان «مراد الثالث» (1595-1554م.) قُسِّمت الولايات إلى باشاويات وسناجق، وعيّن على كل ولاية وزير برتبة باشا، وعلى كل سنجق «مير ميران» أو «باشا». وبقي هذا التنظيم الإداري قائمًا حتى سنة 1660م. حين أُحدِثَت إيالة صيدا بعد تولّي الأمير «فخر الدين المعني الثاني» (1633-1632م.)، وتمّ تشكيل إيالة صيدا بانتزاع أجزاء من ولايتي طرابلس ودمشق وضمّها إلى هذه الولاية

الجديدة.

وفي بداية القرن الثامن عشر كانت التقسيمات الإدارية في بلاد الشام تعتمد نظام الإقطاع والالتزام على نطاق واسع، فكانت الضنّية، والمنية، والزاوية، والهرمل، والكورة، وعكار، وجبّة بشرّي، والشعراء (البُقيعة)، وحصن الأكراد، وطرطوس، وغيرها، تتبع إداريًّا لسلطة والي طرابلس سياسيًّا، وللحاكم الشرعي قضائيًّا.

ويمكن القول إن ناحية الضّنّية كانت قليلة السكان بالنسبة إلى النواحي المجاورة والقريبة منها، نظرًا لطبيعتها الجغرافية وقساوة مناخها شتاءً، ووعورة طرقاتها في الجبال والأودية، ولهذا كانت عبارة عن مزارع وبساتين وحقول، ولم تشهد أرضها قيام مدنٍ أو بلدات كبيرة، لا في عصر المماليك، ولا في العصر العثماني، وظلّت «بخعون» و«بقرصونا» و«عزقي» وغيرها تُعرف بأنها «قرية».

وكان سكان الضنّية – في غالبيّتهم– من المسلمين السُّنّة، وفيها أقلّية من النصارى، ومجموع سكان الضنّية، مسلمين ونصارى، هم أقلّ سكانًا من جميع النواحي التابعة لطرابلس، وهذا الواقع السكاني في العصر العثماني هو امتداد للواقع الذي كانت عليه الضنّية في عصر المماليك، والعصور السابقة على الأرجح.

ونظرًا لقلّة عدد نفوس النصارى في الضنّية، فإن هذه الناحية لم يكن فيها أيّ «دَير» بدليل عدم ورود اسم أيّ دير فيها إلى جانب الأديرة التي كانت في الكورة والبترون وجبّة بشرّي كما في وثائق المحكمة الشرعية بطرابلس.[1]

[1] سجلّ سنة 1232هـ./ 1816م. –ص 377 بعنوان: «بيان أرزاق أديرة الروم».

وكان يُطلب من نصارى الضنّية أن يؤدّوا مبلغ (113,25) مئة وثلاثة عشر قرشًا وربع القرش في السنة لخزانة الدولة في عصر المماليك، وتضاعَفَ هذا المبلغ في العصر العثماني فصار (226,5) مئتين وستة وعشرين قرشًا ونصف القرش في السنة، ومع ذلك بقي ما يؤدّيه النصارى في هذه الناحية أقلّ من جميع النواحي التابعة لولاية طرابلس، بحيث كان المتحصَّل من «المنية» –المجاورة للضنّية– مبلغ ألف قرش تمامًا، في عصر المماليك، وبقي كما هو في العصر العثماني.[1]

وجاء في إحدى الوثائق العثمانية المتقدّمة أن الضنّية كانت تتألّف من (29) تسعٍ وعشرين قرية، و(16) ست عشرة مزرعة. كما أفادتنا إحصائية جرت سنة 1077هـ./ 1666م. أن في الضنّية (30) ثلاثين خانًا ينزل بها التجار والمسافرون[2]، وهي أقلّ عددًا من جميع النواحي التابعة لطرابلس: حيث كان يوجد في الزاوية (40) أربعون خانًا، ومثل ذلك في جبّة بشرّي، أما الكورة فكان بها (60) ستون خانًا.

صراع الإقطاع على الضّنّية في العصر العثمانيّ

ارتبط تاريخ الضّنِّية في العصر العثماني بالأُسَر الإقطاعية النافذة بدءًا من بني عسّاف، إلى آل رعد، مرورًا ببني سيفا، والمعنيّين، والشهابيين، مع تشابُك المصالح والأطماع للحماديّين الشيعة أصحاب النفوذ في الهرمل وبلاد جبيل منذ عصر المماليك.[3]

---

[1] سجلّ سنة 1231هـ./ 1815م. –ص 139.

[2] وثائق نادرة –تدمري– ص 26.

[3] من كتاب تاريخ البقاعي –مخطوط بدار الكتب المصرية رقم 5631.

وتفيدنا المصادر التاريخية أنه بعد سنواتٍ قليلة من دخول طرابلس بحوزة السلطنة العثمانية وُلّي الوزير «إسكندر باشا الخنجرلي» نائبًا ووالِيًا على طرابلس، ثم تولّاها ابنه «مصطفى» ويقال له «خُرُّم» سنة 928هـ./ 1528م. وفي هذه المدّة كانت الضنّية تؤجَّر للأمير منصور ابن أخي الأمير حسن بن عسّاف، وكان إذا تأخَّر الضامن عن تأدية المال المقرّر عليه سنويًّا يُقبض عليه ويودع في الحبس داخل قلعة طرابلس.

وفي سنة 1028هـ./ 1618م. كان «يوسف باشا سيفا» يتحكّم بشؤون ولاية طرابلس كلّها، ولم يكن لواليها «عمر باشا» المشهور بالكتانجي (الكتنجي) سلطة نافذة سوى على مدينة طرابلس فقط، ولما كاتَبَه الأمير فخر الدين المعني وقف على ما يُكِنّه الباشا عمر ليوسف باشا من كراهيّةٍ لاستيلائه على أموال جميع مقاطعات ولاية طرابلس، ولهذا أتى «فخر الدين» برجاله من أهل الغرب والشوف والجُرْد والمتن وكسروان، ونزل بهم إلى الساحل إلى أن صعِد إلى الكورة، فمرّ بأميون، ومنها وصل إلى قلعة بخعون وبات فيها ليلة، ورحل بعدها إلى قرية قبولا بعكار، ومنها لحِق بابن سيفا لقتاله.

ولما كان فخر الدين في بخعون خرج جماعة من دير القمر فصادفوا الأمير محمد بن حسين باشا بن يوسف باشا، وهو في الوقت نفسه ابن بنت (أي سبط) علي باشا جنبلاط فأخذوه في طريقهم وهو ابن خمس سنوات، فأرسله الأمير فخر الدين إلى والدته التي كانت بحارة سِير الضنّية.[1]

---

[1] لبنان في عهد فخر الدين، للخالدي –ص 75، 86.

وبعد أن دخل «عمر باشا الكتانجي» إلى طرابلس واستقرّ بها كتب للأمير فخر الدين المعني مقاطعات نواحي الولاية ببلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي والضنّية وعكار، واشترط عليه أن يؤدّي إليه عشرة آلاف قرش مقدَّمًا، فأرسل إليه العشرة آلاف التي طلبها، وأضاف إليها أربعة آلاف قرش خدمةً لشخصه، وألف قرش لمحاسبه «جعفر أفندي الدفتردار».

وفي أواخر شهر رجب سنة 1032هـ./ 1622م. ركب «يوسف باشا سيفا» على ابن أخيه الأمير «سليمان» لامتناعه عن طاعته، وعدم إعطائه مال السلطان، فطلع «سليمان» من صافيتا إلى الضنّية واحتمى بها، وأرسل منها ابن أخيه الأمير «علي بن محمد» إلى الأمير فخر الدين لمساعدته.

وكانت ذخيرة الضنّية التي تُحَصَّل من ضمانها تساعد في تمويل الفِرق العسكرية التي شكّلها الأمير فخر الدين، وبلغ مجموعها خمس فِرق، إلى جانب ما كان يأخذه من الزاوية والجبّة ووادي خالد وعكار وغيرها.[1]

وفي سنة 1097هـ./ 1685م. كان يلتزم الضنّية أخَوان من آل حمادة، هما: الشيخ حسن، والشيخ سرحان، وفي السنة التالية أعلن الحماديّون العصيان في البلاد وقتلوا شيخ الضنّية «علي بن رعد» وغيره. وكان والي طرابلس «علي باشا النكدلي» خارج ولايته آنذاك، فلما عاد أخذ شقيق ابن رعد وخرج به لينتقم من آل حمادة، فخرّب العاقورة وغيرها وهي من إقطاعهم، وصادر أموالهم.[2]

---

[1] الخالدي –ص 122 و125.

[2] تاريخ الأمير حيدر الشهابي –ج2/ ص741، سجلّ المحكمة الشرعية بطرابلس 3/ 129.

وفي سنة 1104هـ./ 1692م. أُعطيت الضنيّة للشيخ أبي نوفل رعد[1]. وكانت علاقة بني رعد بآل حمادة تسوء حينًا، وتتحسّن حينًا آخر، وتفيدنا وثيقة مؤرّخة في سنة 1186هـ./ 1772م. أن بني رعد وُلاة الضنّية كانوا يميلون إلى جانب الحماديّين ولهذا غضب الأمير «يوسف باشا الشهابي» الذي كان يمدّ نفوذه إلى طرابلس على بني رعد وسار إلى قتالهم في الضنّية في السنة المذكورة، ولهذا أخذ الأمير الشهابي كامل المال المقرَّر على الضنيّة من مال المقاطعات، والبالغ 8999 قرشًا عن ثلاث سنوات (1188-1186هـ./ 1772-1774م.) ولم يأخذ والي طرابلس «عبد الرحمن باشا بن سعد الدين باشا العظْم» شيئًا من المبلغ المذكور، وذلك نتيجة حملة «الشهابي» على الضنّية بمفرده.[2]

براءة تملّك مزرعة مرياطة لآل كرامة صادرة عن السلطان أحمد الثالث

في سنة 1121هـ./ 1709م. أنعم السلطان أحمد الثالث ابن السلطان محمد الرابع على مفتي طرابلس الشيخ «عثمان بن مصطفى بن أبي اللطف كرامي» ببراءة خاقانية – سلطانية وجّه عليه فيها «مزرعة مرياطة» في الضنّية، مع توجيه التولية والتدريس في مسجد القَرمشيّة بمحلّة اليهود.

والمؤسف أننا لم نجد نصّ البراءة المذكورة في سجلّ المحكمة الشرعية بطرابلس العائد لتلك السنة، وإنّما أُفِدنا عنها في «البيورلدي» الآتي ذِكره، وفي دفتر تحرير تركِة ابنه الشيخ «علي» الذي توفي سنة 1192هـ.

---

[1] الغُرر الحسان 743.

[2] وثائق نادرة من سجلّات المحكمة الشرعية بطرابلس –تدمري 503-507 رقم 205.

وهذا نصّ «البيورلدي» الذي أصدره والي طرابلس «محمد باشا» بإبقاء براءة التملّك للمفتي عثمان كما هي، ومنع التعدّي على ممتلكاته وأخْذ أيّة زيادة على ما هو متوجّب عليه، وذلك بناء على كتاب الاحتجاج الذي تقدّم به في سنة 1160هـ.

بيورلدي لمفتي أفندي

«صدر المرسوم المطاع الواجب القبول والاتِّباع الى فخر الاقران امير مقاطعة الزاوية الحاج أحمد آغا زِيد قدْرُه، ومَفَاخر أمثالهم مشايخ الناحية المرقومة بوجه العموم.

والثاني نخبركم بأن افتخار المحقّقين العظام زُبدة المدقّقين الفخام الحاج عثمان أفندي كرامة زاده المأذون بإفتاء مدينة طرابلوس شام حالًا قدّم لنا عرضحال مضمونه بأن في زمن الوزير المرحوم محمد باشا شاه سود؟ زاده توجّهت عليه مزرعة مرياطة من مزارع الناحية المذكورة من طرف الدولة العليّة بموجب براءة شريفة خاقانية بطريق المالكانة على وجه التأبيد مصرّح في البراءة الشريفة أنه يدفع في كل سنة عن مال المزرعة المرقومة ماية غرش إلى خزينة طرابلوس شام من غير زيادة. والوزير المشار إليه أعطاه بيولدي على موجب البراءة الشريفة وأنه لا يكلَّف شيئًا من التكاليف التي تطلب من الناحية بوجه من الوجوه، وكذلك كان لا يدفع على أملاكه من بساتين وزيتون وغير ذلك سوى المال المعيَّن عليه بموجب ما بيده من السندات، واستمر يدفع المعتاد عليه إلى زمن المرحوم الوزير المكرم الحاج مصطفى باشا فنَشَبَت به أيدي الأقدار وتغرّب إلى غير دار فجاست خلال أملاكه ملتزمون الناحية وزادوا عليه أشيا لم تكن معتاده من القديم واخذوها من اتباعه في غيابه واطلعنا على ما بيده من السندات ويرجا رد الشي الى حكم اصله.

فبناء على ذلك اصدرنا هذا البيورلدي وارسلناه اليكم على يد الأفندي المومى إليه حال وصوله ووقوفكم على فحواه تكونوا منه على كمال البصيره ولا يوخذ على

مالكاناته واملاكه زياده على المال المعين المعتاد ولا تكلفوه شياً من التكاليف التي تطلب من الناحية مثل زخيره وطرح وعدّيه وغير ذلك ما جَل وقلّ ولا تعارضوه في نظارة زيتونه ويعملو بموجب سنداته تعلمون ذلك وتوقوا خلافه واعتمدوه غاية الاعتماد.

براة عثمان افندي في 18 ل[1] سنة 1160

مفتي افندي مع ختمه الكبير

سيرة عثمان بن مصطفى الكرامي

هو مفتي طرابلس وابن مفتيها، يُعرف بالحاج عثمان، ووُصف في سجلات المحكمة الشرعية بطرابلس بأنه «افتخار المحقّقين العظام، وزبدة المدقّقين الفخام».

وُجّهت إليه براءة سلطانية بالتولية على وقف المسجد المعروف بالقرمشيّة مع التدريس فيه[2]، وكان يُنيب عنه وكيلًا للقيام بالمهمّتين المذكورتين، ثم تفرّغ له عنهما في أول ربيع الثاني 1166هـ./ 1752م. أيام الحاكم الشرعي القاضي خليل بن أسعد الصدّيقي، وقام بترميم بعض عقارات الوقف. كما تولّى المفتي الحاج عثمان وظيفة التدريس في جامع طينال، وكان يَجمَع مكتبة عامرة بالمؤلّفات المخطوطة في مختلف العلوم الدينية والأدبية. وكتب بيده نسخة من كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»، وهو تأليف «عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي» (ت 521هـ./ 1127م.) وقد طُبع. كما كتب بخطه «تهذيب التهذيب» لآي القرآن العظيم، الذي ألّفه «مصطفى بن سليمان الولي» تهذيبًا لكتاب الشيخ حافظ محمود الورداري، ونسخة هذا الكتاب المخطوط محفوظة بمكتبة «مصطفى كرامي» والد الوزير السابق النائب أحمد كرامي.

---

[1] ل: اختصار لشهر شوال.

[2] الأوقاف الإسلامية في طرابلس الشام –د. تدمري– المؤتمر الدولي السابع لتاريخ بلاد الشام – ص 54، 55 رقم 31.

وانتقل المفتي الحاج عثمان في آخر حياته إلى مدينة أَضنَة ومات فيها غريبًا سنة 1175هـ./ 1761م. فورثه ابنه الأكبر «علي» الذي تولّى إفتاء طرابلس أيضًا حتى توفي في مدينة إسلامبول في أوائل شهر رجب سنة 1192هـ./ 1778م، ولما جرى تحرير تركته تبيّن لنا ما تملّكه أبوه الحاج عثمان في مرياطة بموجب البراءة السلطانية، وآل إليه وإلى أخته «فاطمة» بالوراثة:

1- حصة شائعة في الثلث الشائع في بستان الزمك في مرياطة شركة المرقومة [فاطمة] في الثُلث.

2- نظير الحصة في الثلاثة أرباع الشائعة في كامل بستان غنيم مع كامل حقلة سفرجل الملاصقة له في مرياطة شركة المرقومة.

3- نظير الحصة في الجزيرة الشهيرة بجزيرة المامونية في مرياطة المشتمل على أصول الرمّان شركة المرقومة.

4- نظير الحصة في بستان الكبير مع ماية أصل من السفرجل وأربعة أصول انجاص في كرْم حمود الزمك في مرياطة شركة المرقومة.

5- نظير الحصة في الثلاثة ارباع الشايعة في جزيرة ابي علي ابراهيم في مرياطة شركة المرقومة.

6- جميع الحصة نظير الحصة المذكورة في الثلاثة ارباع الشايعة في بستان عبيد الاسمر في مرياطة شركة المرقومة.

7- ونظير الحصة في كامل بستان عبد الرحمن في مرياطة شركة المرقومة.

8- ونظير الحصة في جميع كروم قرية مرياطة من فرصاد وعنب شركة المرقومة.

9- ونظير الحصة في كامل الألف وخمسين أصلًا من الزيتون في مرياطة المعلومة في الحجة في محالها شركة المرقومة.

ثلاث أزواج بقر عمال	نصَب جديد	ايضًا نصَب في مرياطة
في مرياطة	في مرياطة	شركة احمد الأسمر

قيمة	قيمة	قيمة
120	50	150

الضنّية تشهد نقل عمودين قديمين إلى مركز السلطنة في استانبول

في سنة 960هـ./ 1552م. شهدت الضنّيّة حدثاً فريداً من نوعه تمثّل في نقل عمودين من الغرانيت ضخمين عبر أراضيها من بعلبك إلى ميناء طرابلس، ومنها إلى استانبول ليتمّ استخدامهما في بناء جامع وكليّة السلطان سليمان القانوني بن سليم الأول. ذكر خبر العمودين بعض الباحثين الأتراك بشكل مختَصَر جدّاً، وجعلوا العمودين عموداً واحداً، ولم يذكروا كيف جرت عملية النقل.

ومن حُسن الحظّ أننا وقفنا على قصّة العمودين بالتفصيل في مخطوط صغير محفوظ في مكتبة جامعة «توبنغن Tubingen» بألمانيا، مصوّر في مركز الوثائق والمخطوطات العربية بالجامعة الأردنية، بعمّان، كتبها شخص يُدعى «محمود»؟ بلغة عربية ضعيفة، في (14) صفحة، ملخّصها أن والي دمشق أرسل إلى السلطان يخبره أن بقلعة بعلبك عمودين ضخمين يصلُحان لبناء الجامع، فتجنّد لهذا الأمر الوالي وقاضي قضاة الشام، وكبير المعماريين باستانبول والشام، وكبار العلماء، والأبطال بحمل الأثقال، وأصحاب عربات النقل للأشياء الثقيلة، وجماعة من العساكر ورؤساء الجُنْد، وعملوا مساعدين لكبير المعمار السلطاني، فقطّعوا أشجار الجوز الكبار والمَيْس وعملوا منها عربات، ثم قاموا بتمهيد الطريق ما بين بعلبك وطرابلس عبر الضنّية، ليلًا ونهارًا، وجاء من دمشق عشرات الجنود، وعشرون حجّارًا من نصارى الشام، وجماعة من الحدّادين المعلّمين، وقطّعوا الأشجار والأحجار على طول الطريق وأزالوا كل المعوّقات منها ليسهُل جرّ العمودين، واستغرق سحب العمودين أربعةً وعشرين يومًا، واجتمع على سحب العمود الواحد ثلاث مئة نفر من أهل بعلبك، بالاشتراك مع

«موسى بن الحرفوش» من أرباب التيمار، كما اشترك الأمير علي بن بيدمر بمن معه، إلى أن أوصلوا العمودين إلى ميناء طرابلس، ووصلت بعد ذلك سفينة كبيرة حملتهما إلى استانبول. وقد استغرق العمل نحو أربعة أشهر من شهر جمادى الآخرة حتى شهر رمضان.

أعلام في تاريخ الضّنّية الإسلاميّ

عند إعدادنا لـ«**موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي**» عبر 14 قرنًا هجريًّا (من القرن الأول حتى آخر القرن الرابع عشر الهجري) أتينا على ذِكر مجموعة من الأعلام الذين يُنسَبون إلى الضّنّية وقراها، ممن كان لهم دورهم العلمي والفكري والاجتماعي، ووصل بعضهم إلى تولّي المناصب والوظائف الرفيعة في طرابلس، فكان منهم مُفتون وقُضاة ورؤساء محلات في المدينة، ومدرّسون وخطباء ومحدّثون في أشهر جوامع طرابلس، وتوارث بعضهم منصب الإفتاء لعدّة سنوات، نذكرهم مرتّبين على الحروف:

1- إبراهيم الضِّنِّي

الشيخ الفقيه، المقرئ.

رحل من الضّنّية إلى مصر طلبًا للعلم، فتفقه على الشيوخ وحفظ القرآن الكريم، واجتهد حتى صار عالمًا، وتصدّر للإقراء في الجامع الأزهر، فجوَّد عليه القرآن شمس الدين محمد بن إبراهيم بن علي بن محمد المغربيّ الأصل، النشيلي ثم القاهري

الأزهري الشافعي، المولود سنة 835هـ./ 1431م. ويحتمل أن تجويده على الضنّي كان في حدود سنة 845هـ./ 1440م. فهذا يعني أن المقرئ الضني توفي بعد ذلك.[1]

2- أحمد بن الحُجَيْج البخعوني، الضّنّي، الطرابلسي

الشيخ الفاضل.

من أهل بخعون، حجّ إلى بيت الله الحرام سنة 971هـ./ 1563م، وفي رحلته حضر مجلس الحديث الذي كان يعقده المحدّث «ابن حجر الشافعي» ولازَمَه حتى أخذ منه إجازةً بالسماع، وبالرواية عنه، وهي إجازة عامّة له ولأهله وجميع أهل بلده. وهذا نصّ الإجازة بخط «ابن حجر الشافعي المكّي»:

«الحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على سَيّدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد، فقد قرأ عليّ أحمد بن الحجيج، من بخعون في سفح جبل لبنان قريبة من طرابلس الشام، قطعةً من أول «صحيح البخاري» سنة إحدى وسبعين وتسعماية، بمكة المشرّفة، وطلب منّي أن أجيزه ببقيّته وغيره مما تجوز (كذا) لي وعنّي روايته بشرطه المعتبر عند أئمّة الحديث والأثر، فأجزته وأهلَه وجميعَ أهل بلده وإقليمه بجميع ذلك، وشرطتُ عليه وعلى مَن ذُكر، لا سيما صُلحائهم أن لا ينسوني من الدعاء، تقبّله الله بمنّه وكرمه، آمين. قال ذلك وكتبه أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الشافعي خادم العلم الشريف بحرم الله المطهَّر المنيف، عفا الله عنه وعن مشايخه ووالديه والمسلمين».[2]

---

[1] الضوء اللامع للسخاوي-ج6/ 271، 272 رقم 905.

[2] البُوريني، حسن - تراجم الأعيان - تحقيق د. المنجّد - دمشق 1963 -ج2/ 63 و302، 303.

والمرجَّح لدينا أن الشيخ البخعوني هذا هو الذي ذكره المؤرّخ البوريني في كتابه «تراجم الأعيان من أبناء الزمان» وأخطأ الدكتور «صلاح الدين المنجّد» في ضبط نسبته فقال: «الشهاب أحمد النجعوني الطرابلسي»!

و«ابن حجر الشافعي المكّي» صاحب الإجازة في الحديث هو متأخر عن سميّه الحافظ «ابن حجر العسقلاني» المتوفَّى سنة 852هـ./ 1448م. واسمه «أحمد» أيضاً.

والإجازة مخطوطة في مكتبة أستاذنا الشيخ عبد الحميد الحامدي، رحمه الله، وكانت ملحقةً بجامع العطار، بطرابلس، ونقل نصّها الشيخ «ظهير بازرباشي».[1]

3- أحمد بن عبد المولى السِّيري

الشيخ الفاضل، مفتي طرابلس الشافعي وابن مفتيها.

تولّى وظائف أبيه في عدّة أماكن بعد وفاته سنة 1136هـ./ 1723م. وهي طلب العلم الشريف بجامع محمود لطفي الزعيم - المعروف بالمُعَلّق - في محلّة الحدّادين، ووظيفة قراءة ما تيسّر من القرآن الكريم في المسجد الكائن بمحلّة باب التبّانة خارج باب المدينة -والمرجّح أنه مسجد القاضي عمر في سوق القمح- وله أن يقرأ في أيّ مكان يشاء، مع وظيفتي الإمامة والخدامة بمسجد كوريّة في محلّة سُوَيقة الخيل (الحدّادين حاليًّا)، وكانت تولية المسجد المذكور بيده.[2]

---

[1] موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي -تأليفنا- بيروت، المركز الإسلامي للإعلام والإنماء 1414هـ./ 1993م. - القسم الثالث- ج1/ 284، 285 رقم 68.

[2] الموسوعة - قسم 3 ج1/ 329 رقم 801.

4- أحمد بن محمد بن عبد المولى السِّيري

الشيخ الفاضل، المحدّث، المدرّس بالجامع المنصوري الكبير بطرابلس، من أهل القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي.

أخذ الحديث على الشيخ «محمد بن محمد بن محمود بن عبد الحق» الجدّ الأعلى لبني الحامدي الذين توارثوا الحديث والتدريس والإمامة بجامع العطار، وكان أخذ عليه «صحيح البخاري» سماعًا لبعضه، وإجازة لباقيه. وبعد وفاة شيخه تولّى هو وظيفة تدريس الحديث في جامع العطار، فكان ابن شيخه: «محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن عبد الحق، أبو حامد الحامدي» واحدًا ممن أخذ عليه الإجازة برواية الحديث، بعد أن قرأ عليه بعضًا من أحاديث الجامع الصحيح بلفظه، وكتب له إجازة بذلك بتاريخ يوم الأربعاء الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظّم سنة 1097هـ. وقد جاء فيها: «ابتدأنا قراءة الحديث الشريف في جامع العطار في الثلاثة أشهر المباركة سنة 1097، وانتهينا في قراءته إلى باب فضل العلم».

ونَصّ الإجازة كان محفوظًا بمكتبة أستاذنا الشيخ عبد الحميد الحامدي، رحمه الله، بجامع العطار.[1]

5- تمّام بن عبد الله بن المظفَّر الضنّي، الدمشقي

كان حافظًا للقرآن الكريم، من الضّنّية، أقام بدمشق وبها توفي فنُسب إليها. ذكره الحافظ «ابن عساكر الدمشقي» فقال إنه روى عن: أبي محمد، عبد الله بن الحسن بن حمزة بن أبي فجّة البَعْلَبَكّي (ت 488هـ.)، وسمع: علي بن الحسن بن طاوس، وسهل بن بِشْر الإسفرائيني (ت 491هـ.). وكان شيخًا مستورًا، حافظًا للقرآن، مواظبًا على

---

[1] الموسوعة – القسم 3 ج1/376-378 رقم 31.

صلاة الجماعة. توفي في شهر المحرم سنة 533هـ. ودُفن بالباب الصغير بدمشق.[1]

6- عبد الله بن إبراهيم الضِّنّي

نائب الحاكم الشرعي بمحكمة طرابلس، والخطيب بالجامع المنصوري الكبير.

ذكره «ابن محاسن الدمشقي» في رحلته إلى طرابلس، فسمّاه أولًا: «عبد الله»، وثانيًا «هبة الله»، ولم يذكره غيره لنتأكّد أيّهما الصواب. وقال: كان منسوبًا للفضائل، ومعدودًا من الأماثل، يتولّى بعض الأوقات النيابة في المحكمة، وله نصف مرتّب الخطابة في الجامع الكبير، ثم نشأ ولدُه حاذيًا حذوه في الخطابة والنيابة.

أقول: من المحتَمَل أنه توفي قبل سنة 1048هـ./ 1638م. لأن «ابن محاسن» لم يجتمع به، بل ذكره في ترجمة ابنه «محمد».[2]

7- عبد الله بن بدر الدين السِّيري

الشيخ ابن الشيخ الفاضل ابن الفاضل.

اجتمع بالرحّالة الشيخ عبد الغني النابلسي بطرابلس أثناء زيارته لها سنة 1112هـ./ 1700م. وقرأ عليه أحاديث من «الأربعين النووية»، ونال منه إجازة بكل ما ألّفه ورواه.

أقول: وردت نسبته بصيغة «السري» حسب ضبط المحقّق للرحلة، والصواب:

---

[1] تاريخ دمشق، لابن عساكر 69/20 و143/58، تراجم العلماء والأعلام في القرن السادس الهجري – تأليفنا– ج162/1 رقم 162، لبنان من السقوط بيد الصليبيين حتى التحرير – تأليفنا – ج386/2.

[2] المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية – ص69، الموسوعة – القسم 3 ج3/ 188 رقم 737.

«السّيري».[1]

8- عبد المولى السِّيري الطرابلسي الأشعري

الشيخ الفاضل، المفتي، المدرّس، القارئ، العالم في الطبيعيّات وعلم النجوم، الحاجّ الأشعريّ.

توجّهت إليه عدّة وظائف في مساجد طرابلس، فكان مدرّسًا بالجامع المنصوري الكبير، وتولّى وظيفة الطلب للعلم الشريف بجامع محمود لطفي الزعيم (المعلّق)، ووظيفة قراءة سورة «الأنعام» في الجامع الكبير، وقراءة ما تيسّر من القرآن في المسجد الكائن بمحلّة باب التبّانة خارج باب المدينة في أيّ مكان يشاء، ووظيفة التولية على مسجد كورية الكائن بمحلّة سُويقة الخيل (الحدّادين)، والإمامة والخدامة في المسجد المذكور، وقراءة الحديث الشريف في جامع طينال، وتولّى منصب إفتاء الشافعية إلى أن توفي سنة 1136هـ./ 1724م، وتوزّعت وظائفه على ابنه أحمد، وحفيده محمد، وابن أخته، وغيره.[2]

ذكره «المُرادي» فقال: عبد المولى المعروف بالسِّيري الشافعي الأشعري الطرابلسي، مفتي الشافعية بطرابلس. كانت له يد في العلوم لاسيما في الطبيعيات والنجوم، حتى قيل إنه وصل بمعارفه عند توسّط كيوان إلى استحالة بعض العناصر إلى بعض، وإلى تقويم عند أَخْذ العرض تُنْبي عن استخراج مجهولات، وكان له قدم ثابت في إرصاد الثوابت، كما إن له باعًا طويلًا فيما إليه يميل.[3]

---

[1] التحفة النابلسية في الرحلة الطرابلسية، النابلسي –ص 86، الموسوعة – القسم الثالث، ج3/ 188 رقم 738.

[2] الموسوعة – القسم الثالث – ج3/ 259، 260 رقم 790.

[3] سلك الدرر في أعيان القرن الحادي عشر – المُرادي – ج3/ 140، الموسوعة – القسم الثالث =

9- عبد الهادي بن عمر بن أحمد السِّيري

الشيخ الفاضل المدرّس.

تولّى وظائف أبيه بعد أن تفرّغ له عنها في 9 صفر سنة 1160هـ./ 1747م. وهي: التدريس بالمدرسة الشمسية المجاورة للباب الرئيسي للجامع الكبير، ونصف الخطابة بالجامع الكبير بشركة محمد خليفة الحاكم بطرابلس بحقّ النصف الثاني، والتدريس بالمدرسة القرمشيّة التي كانت قريبة من حارة اليهود، ووظيفة نصف الكتابة على وقف جامع العطار بشركة محمد الأزهري، وتقرّرت هذه الوظائف عليه في 12 صفر من السنة المذكورة. كما تولّى الإمامة في جامع الطحّام، وقراءة ما تيسّر من القرآن في أيّ مكان.

توفي في شهر ربيع الأول سنة 1175هـ./ 1761م. في بيته بمحلّة المزابل المعروفة الآن بحارة البرّانية.

وترك مكتبة كانت تضمّ مجموعة مخطوطات، منها: كتاب شرح الأشموني على ألْفيّة ابن مالك، في النحو، وجزءًا من «المختار على المنهاج» في الفقه، وتفسير القاضي البيضاوي، ورسالة في الكلام، وشرح الكافية، في الأصول، والفائق في الرقائق، وكتابًا في علم الفَلَك، والتيسير في القراءات، وشرح الشواهد للعيني في اللغة، والشرح على المنهاج، وغيره.[1]

= - ج3/ 259، 260 رقم 790، وفيها مصادر أخرى.

و«كيوان»: لفظة فارسية تُطلق على أحد سيّارات النظام الشمسي زُحَل -واسمه عند المنجمين: النحس الأكبر والمقاتل.

[1] الموسوعة - القسم الثالث - ج3/ 270، 271 رقم 797.

10- عمر بن أحمد بن عبد المولى السِّيري

الشيخ الخطيب، الإمام، المدرّس، الكاتب، الحنفي.

ذكره «المُرادي» فقال: «عمر السيري الطرابلسي الحنفي، الشيخ الفاضل العالم الصدر المحتشم، تَرجَمَه بعض الفُضَلاء فقال في حقّه: هُمام ذو فَهْمٍ ثاقب، في المعارف والمناقب، وإنشاء عجيب، في المحاولة لكل أمرٍ غريب، تميل إليه الناس، رعاعهم والأكياس، في نجاح مقاصدهم، وبلوغ حوائجهم. ولم يزل في الناس كذلك، سالكًا أحسن المسالك، إلى أن تقلّد بسيف القضا، وقطع به ما كان مرتَضَى، فانقطع حبله، وقَلَّ وصْلُه، ودارت عليه الدوائر، إلى أن زار المقابر. ولقد اطَّلعتُ له على نميقه، تؤذن بحرّية ألفاظه الرقيقة، وعُلُوّ رُتبة مُنشيها، على أرائك معاليها». وكان له فضل غزير وأدب غَضّ، وصار أحد أعيان طرابلس وصدورها.

تولّى الخطابة والإمامة بالجامع المنصوري الكبير في شهر رمضان سنة 1136هـ./ 1724م. واقتضى سفره إلى خارج طرابلس لفترة من الوقت لقضاء بعض الحوائج فسُمح له، وعاد إلى بلده، فتولّى التدريس بالمدرسة الشمسية، والكتابة على وقف جامع العطار، والتدريس بالمدرسة القَرمشيّة، وفرغ له الشيخ إبراهيم بن مصطفى بن عبد الحيّ عن تدريس المدرسة الخاتونية بمحلَّة صَفّ البلاط في شهر ربيع الأول سنة 1142هـ./ 1729م. وكان شاهدًا عدلًا، حيث سافر إلى دمشق ليشهد أمام قاضيها على صحّة نسب الأمراء التنوخيّين الأرسلانيين، وذلك في الثامن عشر من شهر رمضان سنة 1147هـ./ 1734م.

وبقي متصدّرًا في وظائفه حتى فرغ عنها جميعًا لولده «عبد الهادي»، وكانت وفاته في سنة 1159هـ./ 1746م. وقيل في شهر صفر 1160هـ. وكان فرغ قبل ذلك

عن نصف الخطابة بالجامع الكبير لشريكه بها الشيخ «محمد خليفة الحكم العزيز» يومئذ بطرابلس.[1]

11- عمر بن حَمْل الضِّنّي

الشيخ الفقيه.

رحل من الضّنّية إلى بعلبك ودمشق طلبًا للعلم وسماع الحديث، فأخذ على الفقيه أبي الحسين، علي بن محمد بن الحسين اليونيني البعلبكي الملقّب بشرف الدين، وكان إمامًا محدّثًا متقنًا وزاهدًا مشهورًا، توفي شهيدًا سنة 701هـ./ 1301م، وجلس ابن حَمْل الضّنّي لرواية الحديث، وقصده العالم الحافظ والمؤرّخ «عَلَم الدين، القاسم البرزالي» فسمعه وروى عنه.

حضر حصار الملك المنصور قلاوون لطرابلس سنة 688هـ./ 1289م. وتوفي يوم فتْحها الثلاثاء 4 من شهر ربيع الآخر/ 26 نيسان، ودُفن بمقبرة الشهداء.[2]

12- محمّد بن أحمد السِّيري

مفتي طرابلس الشافعي وابن مفتيها، وأحد كبار أعيانها.

تولّى إفتاء الشافعية بعد وفاة شقيقه الحاج عبد المولى في 28 من شهر رمضان سنة 1136هـ./ 1724م، كما تقرّر في وظيفة قراءة سورة «الأنعام» بالجامع المنصوري الكبير في التاريخ المذكور. وفي منتصف شهر جمادى الأولى سنة

---

[1] سجلّ المحكمة الشرعية بطرابلس لسَنَتَي 1159 و1160هـ. ص 43، الموسوعة – القسم الثالث – ج3/ 384، 385 رقم 922، السجل الأرسلاني – ص171، سلك الدرر، للمرادي 3/ 188، تراجم علماء طرابلس، لنوفل 32، وغيره.

[2] المشتبه – للذهبي 2/ 409، الموسوعة – القسم المستدرك على القسم الثاني – ص214 رقم 165.

1141هـ./ 1728م. تولّى وظيفة الإمامة للأوقات الخمس في مسجد المرحوم الحاج أحمد جاويش الشهير بابن الست كريمة في زقاق الكريمية بمحلّة النوري (الصيّاغين)، إضافة إلى قراءة سورة «يس» في كل يوم.

وبحكم موقعه الديني ووجاهته فقد أُنيط به منصب إمامة محلّة الصباغة بطرابلس ووضع توقيعه على التعهّد الذي قدّمه أهل المحلّة المذكورة بالامتناع عن إيواء الزُّرب (الأشقياء) أو الخوارج (العُصاة)، وذلك في أواخر ذي القعدة سنة 1152هـ./ 1739م.[1]

13- محمّد بن عبد الله بن إبراهيم الضِّنِّي

مفتي الأحناف بطرابلس.

يُحتَمَل أن يكون أحد أحفاد المقرئ الضنّي الذي كان يُقرئ القرآن الكريم في الجامع الأزهر بالقاهرة حوالى منتصف القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي.[2]

التقى به «رمضان العُطَيفي» في رحلته إلى طرابلس سنة 1043هـ./ 1633م. وزاره في داره، ووصفه بأنه كان عالمًا جليلًا، وكاملًا نبيلاً، يتكلّم بالعربية والتركية، ويكتب الخَطّ الحَسَن، ثم قال: دخلت داره فرأيته جالسًا في إيوانٍ حيطانه كلّها من الرخام المنوّع، وفرشه بالحرير والجوخ الملوّن، وبين يديه عدّة مماليك في أعلى طبقات الجمال والأدب والكمال، وهذا يدلّ على ثرائه وجاهِه. ولما أخذ «العُطَيفي» مجلسه سأله المفتي عن علماء دمشق فردًا فردًا، وعن أحوال دمشق. وختم ذِكره بقوله:

---

[1] الموسوعة – القسم 3 ج4/ 77، 78 رقم 1054.

[2] انظر رقم 1.

وبالجملة فهو فصيح بليغ له جاه ووجاهة ومعرفة بالروم (الأتراك) وأهله وبكل البلاد.

وبعد خمس سنوات زار طرابلس الرحّالة «ابن محاسن الدمشقي» في سنة 1048هـ./ 1638م. ولقيه، وسمّى أباه أولاً بـ«عبد الله»، ثم عاد وسمّاه «هبة الله»، وقال إنه كان منسوبًا للفضائل، يتولّى في بعض الأوقات النيابة في المحكمة، ونصف الخطابة في الجامع المنصوري الكبير، فنشأ ولده «محمد» صاحب هذه الترجمة حاذيًا حذوه في الخطابة والنيابة. ثم قال «ابن محاسن»: لم نجتمع معه بالنسبة إلى فُضَلاء البلدة إلّا قليلًا، وكان كثير الاعتذار في كونه لم يُسْدِ إلينا جميلًا، وسبب ذلك أنه حصل له ماجريّة في زمنٍ «أُنسِي» لما كان قاضيًا بتلك البلدة، وكان إذ ذاك نائبه فحصلت له معه نائبة، فَمنها لزِم داره وأَلِف اقتصاره، وقلّل إكثاره، واتّصف بهذا زمان البيوت، والقَنَع بالقوت.[1]

14- محمّد بن عبد الله السِّيري

الشيخ المدرّس، القارئ.

ابن أخت عبد المولى السيري الذي كان مدرّسًا بالجامع المنصوري الكبير، وقد توفي خاله «عبد المولى» في شهر رمضان سنة 1136هـ. فتقرّر هو فيها، ثم تقرّر في وظيفة قراءة سورة «يس» على مدفن الستّ كريمة والدة «أحمد جاويش» صاحبة المدرسة الكريمية بالصاغة، والقراءة لروح أخيه بجبّانة الجامع المنصوري في سنة 1141هـ.[2]

---

[1] رحلة من دمشق الشام إلى طرابلس الشام – للعُطَيفي – ص17، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، لابن محاسن الدمشقي – ص69، الموسوعة – القسم الثالث – ج4/ 200 رقم 1134.

[2] الموسوعة – القسم الثالث – ج4/ 202 رقم 1137.

15- محمّد بن عبد المولى السّيري

الشيخ الفاضل، الفقيه الشافعي.

اجتمع به الرحّالة الشيخ «ابن محاسن الدمشقي» عند زيارته لطرابلس سنة 1048هـ./ 1638م. ووصفه بالشيخ الفاضل واللوذعي الكامل، وكتب عنه قائلًا إنه رجل له فضيلة في فقه الشافعية ومعرفة في الحساب والفَلَك، كان بيننا وبينه معرفة من الشام سابقة [وهذا يدلّ أنه زار دمشق قبل التاريخ المذكور]، وتأكّدت العلاقة بيننا في هذه اللاحقة، استأنسنا به غالب الأوقات، وكنا لا نخلو معه من بعض المذاكرات.[1]

16- محمّد بن محمّد بن عبد الله السِّيري

هو الشيخ الفاضل، المدرّس، الإمام، القارئ، الكاتب.

خَلَف والدَه في الكثير من الوظائف في جوامع ومدارس طرابلس، في شهر شوال سنة 1165هـ./ 1751م. منها: التدريس في الجامع المنصوري الكبير، والإمامة في المدرسة الحُجَيجِيَّة -بسوق النحّاسين- والكتابة على وقف مدرسة الدّبّوسيّة - بمحلّة الدبابسة بالحدّادين-، والتولية على وقف المدرسة الكائنة بسُوَيقة الخيل المعروفة بمدرسة عمار (؟)، كما تقرّر في نصف وظيفة الكتابة في وقف جامع العطّار، ووظيفة قراءة ما تيسّر من القرآن الكريم في أيّ مكان مقابل الانتفاع من أجل ذلك من حانوتٍ بسوق البوابجيّة (مفردها: بابوج) تجاه حمّام عزّ الدين بمحلّة باب الحديد، ووظيفة قراءة جزء شريف من القرآن الكريم وإهداء ثوابه لروح الشيخ عبد الحيّ ابن الموقّع الشامي، وقراءة سورة «يس» على مدفن والدة المرحوم الحاج أحمد جاويش الشهير بابن الستّ كريمة، وإهداء ذلك إلى روحها وروح أخيه في جبّانة الجامع الكبير التي كانت في الجهتين: الجنوبية-القِبْلية، والجهة الغربية، ووظيفة الجباية على وقف

---

[1] الموسوعة - القسم الثالث - ج4/ 204 رقم 1141.

الحرمين الشريفين.

وفي الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة 1175هـ./ 1761م. فرغ له الشيخ عبد الكريم بن محمد بن زين عن وظيفة الإمامة بجامع الطحّام، كما فرغ له عن ربع الخطابة في الجامع المنصوري الكبير، والتدريس بالمدرسة الشمسية، وقراءة ما تيسّر من القرآن الكريم في أيّ مكان، بشراكة أحمد الخطيب ابن الحاج مصطفى.

توفي سنة 1187هـ./ 1773م. وآلت وظائفه إلى ابنه الآتي محمد.[1]

17- محمّد بن محمّد بن محمّد بن عبد الله السِّيري الطرابلسي

الشيخ الفاضل، الإمام، القارئ، الخطيب، المعروف بـ«محمّد أمين».

خَلَفَ والدَه في الكثير من وظائفه، واستقرّ فيها بعد وفاته في أواخر شهر ذي الحجة سنة 1187هـ./ 1773م. وهي:

وظيفة الكتابة في وقف مدرسة الدبّوسية، وقراءة ما تيسّر من القرآن في أيّ مكان من وقف أهل الخير، وقراءة ما تيسّر من وقْفٍ آخر لأهل الخير، وقراءة ما تيسّر أيضًا، والتولية على وقف مدرسة عمار في محلّة سُوَيقة الخيل بالحدّادين، وقراءة ما تيسّر في وقف المدرسة المذكورة، ووظيفة النفطجية في وقف الجامع المنصوري الكبير، وجامع التوبة، وقراءة ما تيسّر في أيّ مكان، وقراءة ما تيسّر وإهداء ثواب القراءة إلى روح الأمير شهاب الدين قرطاي صاحب المدرسة القرطاويّة، وقراءة ما تيسّر في صبيحة كل يوم بمدرسة الحُجَيجِيَّة، وقراءة جزء شريف من القرآن كل يوم في جامع العطار، وقراءة الفاتحة من وقف أهل الخير، وقراءة ما تيسّر من وقف يوسف باشا السيفي والي طرابلس، والتولية على أوقاف جامع العطار، وإمامة مسجد أحمد

---

[1] الموسوعة – القسم الثالث – ج4/ 275، 276 رقم 1207.

جاويش الشهير بابن ست كريمة، مع قراءة سورة «يس» كل يوم في هذا المسجد.

وفي الرابع من شهر شوّال سنة 1191هـ./ 1777م. فرغ له الشيخ عبد الله ابن الشيخ عبد الرحمن المنصور عن نصف وظيفة الخطابة في جامع التوبة. وفي 20 من ربيع الأول 1192هـ./ 1778م. فرغ له الأخوان: محمد وأحمد ابنا الشيخ إبراهيم بن محمد تدمري عمّا بيدهما من وظيفة التولية على وقف مسجد القطانين بباب الحديد، وعن وظيفَتَي الإمامة، وقراءة سورة «نبأ» في المسجد المذكور.

وفي 21 من شهر شوال سنة 1203هـ./ 1788م. فرغ الشيخ محمد أمين عن وظائفه الأخيرة للشيخ عبد الكريم بن يحيى الحسيني، وذلك بعد أن كبُر في السنّ، وتوفي بعد ذلك في سنة غير معروفة.[1]

[1] الموسوعة – القسم الثالث – ج4/ 30، 31 رقم 1004.

الضِّنيّة إبّان حقبة الإحتلال الفرنسيّ

من خلال تقرير الملازم الأول الفرنسيّ "رونييه" سنة 1926-1927

في سنة 1926 أقام الملازم الفرنسي الأوّل «رونييه» مع فرقته العسكرية الفرنسية في لبنان الشمالي، وكان قائدًا لسَرِيّة القنّاصة الثانية التي رابطت في لبنان عقب الحرب العالمية الأولى، وقد كتب مذكّراته عن شمال لبنان بوجهٍ خاص بحكم إقامته وخدمته العسكرية ومشاهداته، وأتى ببعض المعلومات المفيدة عن الضنّية قبل نحو قرنٍ من الزمان، حيث كانت تخترقها طريق واحدة، جزئيًّا، هي الطريق العسكرية من طرابلس إلى سير، والتي أُنشئت بعد ثورة جبل الدروز في سورية واخترقت حدود لبنان، وعمّت مناطق الشمال (عكار والضنّية)، والجنوب (حاصبيّا) والبقاع (الهرمل وراشيّا) عام 1925-1927، ومنذ ذلك الوقت أصبحت بلدة «سير» المركز السياسي للمنطقة، وكانت تبعُد عن طرابلس أقلّ من ساعتين بالسيارة، حيث لا توجد طُرق معبَّدة في كل المنطقة، وإنّما تتصل القرى ببعضها بواسطة البغال والحمير عبر دروب سيّئة، رُغم أنها، في الحقيقة، غنيّة نسبيًّا، ومأهولة بالسكان، تُزرع فيها الحبوب والأشجار المثمرة، ويجني منها الأهالي منافع مهمّة لوفرة مراعيها، وغاباتها التي يباع قسم من خشب أشجارها إلى طرابلس، والقسم الآخر إلى حمص، والإفادة منها كفحم في الشتاء، أو أخشاب للبناء.

وكان المسلمون السُّنّة يشكّلون الغالبية العظمى لسكان ثلاثين قرية منتشرة على الهضاب، يبلغ تعدادهم 5890 نسمة تقريبًا، ويعيشون في وئامٍ مع جيرانهم بأكروم، إلاّ أن علاقاتهم بالموارنة والروم الأرثوذكس، في الضنّية والزاوية والجبل، أقلّ حرارة. وهي تحت النظام الإقطاعي جزئيًّا، وتخضع لسلطة عائلتين أو ثلاث عائلات من البكوات والأغاوات الذين يتقاسمون النفوذ في المنطقة، متّحدين أو متحالفين فيما بينهم.

تمرّد الضنّية وتهدئتها إبّان الإحتلال الفرنسي

نَجَم تمرُّد الضنيّة عام 1926 عن وقوع عدّة حوادث خارجها، بدأت بثورة جبل الدروز، وتبِعها تمرّد ضدّ الاحتلال الأجنبي في دمشق وحمص وحماة، وانتشرت كبقعة زيت في سورية، وما لبثت شرارتها أن وصلت إلى الضنّية حيث هبّ المسلمون بها يشدّون أزْرَ إخوانهم في مقاومة المحتلّ، ورافَقَ ذلك حسب رأي الملازم الأول الفرنسي «رونييه»:

1- الاستياء الخفيّ الذي يسيطر على البكوات المسلمين الذين كانوا يرغبون في أن يكونوا تابعين لحكومة دمشق، وأن لا يكونوا تحت نير المسيحيين.

ومن ناحية ثانية، أضَرَّ تشكيل حكومة منظّمة بهيبة البكوات المسلمين، إذ بدأت سلطتهم تضعُف يومًا بعد يوم، وأخذت عائلات من الصف الثاني تُزاحمهم في السلطة والنفوذ.

2- وجود عائلات غنيّة بالرجال، فقيرة بالأرض، وهي تعيش بصورة بائسة من التهريب، أو من قطع الأخشاب، وبسبب الخوف من قوّتها العددية كان البكوات يأملون الإفادة من انهزام الثوار ليغتنوا من أسلابهم.

3- كان واضحاً التأثير القومي الذي يربط الضنّية بطرابلس حيث وحّد الشعور القومي العروبي بينهما، وأسهم في إذكاء نيران الثورة، وبدا واضحًا أن الضنّية كانت مؤهّلة لأن تشارك مع طرابلس «العربية المسلمة» في حركة التحرّر، خاصّةً أنها وُعدت بتقديم السلاح والمال.

وهنا يدلي الكاتب الفرنسي بوجهة نظره فيقول:

«واعتمادًا على الكراهية التي تُكنُّها عائلتان أو ثلاث، من هذه المنطقة، لرئيس مخفر الدَّرَك في سِير، أخذوا يحرّضون على القتل، آملين، وبحقّ، أن هذا العمل سوف

يطلق الحركة (حركة التمرّد). وفي أيار/ مايو، بدا أن الوقت ملائم، فقد وصلت حركة التمرّد إلى أكروم، حيث إنه، في 18 منه، مُنيَ القنّاصة اللبنانيون بالهزيمة، وتؤكّد المصادر، من جهة أخرى، أنه لم يعد هناك قوات جاهزة للعمل».[1]

وفي مواضع متفرّقة من كتابه يذكر «رونييه» بعض الملامح التاريخية والاجتماعية المختَصَرَة، ولكنها مفيدة، منها أن طريق طرابلس– سير طولها 26 كلم. إلى الجنوب الشرقي من طرابلس، وهذه الطريق تسمح بدخول الضنّية، وعلى مسافة 1,5 كلم. شمال سير توجد قرية حقل العزيمة، ويبلغ عدد سكانها (120) نَسَمة، جميعهم من الروم الأرثوذكس. وعلى مسافة 2 كلم. جنوبًا موضع يسمّى «رأس الكدّان» عُثر فيه على بعض القطع من النقود المعدنية، نُقش عليها رسم لـ«غودفروا دي بويّون» أحد أمراء الفرنج الصليبيّين، (وهو دُوق اللورين الأدنى بفرنسا الذي وصل مع أولى حملات الفرنج إلى ساحل الشام 491هـ/ 1098م.)[2]. وتبعد مرياطة 13 كلم. عن طرابلس، وسكانها (61) نسمة من المسلمين، يملكها بكاملها عبد الحميد كرامي، وفيها منزل جميل يصطاف فيه. وسكان سير 500 مسلمون، و163 موارنة، و37 أرثوذكس (المجموع 700 نسمة)، وهي مركز الاصطياف ومركز المديرية، وفيها مخفر للدرك، وآلة هاتف في المخفر المذكور، وهي على عُلُوّ ألف متر عن سطح البحر، فيها مياه غزيرة، وهي غنيّة جدًّا، فيها بعض المنازل الجميلة، وموقعها مميَّز على هضبة في قعر وادٍ برّي ومرجٍ في آنٍ معًا، حيث المَضَايق الصخرية، والملاعب في أعالي الجبال، وعدّة شلّالات في عمق الوادي المخضوضر، وقنوات جميلة للريّ، ومناظر جميلة، تطلّ على طرابلس وسهل عكار والبحر. ومن أعيانها «محمد بك

---

[1] لبنان الشمالي في الثلث الأول من القرن العشرين –الليوتنان رونيية – تعريب ياسين سويد – بيروت، دار النهار 2004م. – ص 117–119.

[2] لبنان من السيادة الفاطمية حتتى السقوط بيد الصليبيين –د. تدمري – ج1/ 185.

المُلْحم»، رجل محبوب ومضياف جدًّا، و«نصوح آغا الفاضل» و«نجيب آغا الفاضل». وتبعُد «السفيرة» 30 كلم. شمال شرقي سير، وسكانها (338) من المسلمين، وتتم الرحلة إليها على الخيل.

وتفيد السلطة العسكرية أنها أنشأت خلال العامين 1926–1927 بمساعدة الأهالي وبدونهم طريق سير– طرابلس، مع تفرُّع لبعض القرى: كفرحَبُو – عاصون – بخعون (سير 28 كلم. – كفرحبو 2,5 كلم. – عاصون نصف كلم. – بخعون 2 كلم.).

وكان يرابط في سير فقط 5 مُشاة، و8 خيّالة. أمّا خدمة الهاتف فهي في سير خلال فصل الصيف فقط، وهو خط مباشر مع طرابلس.[1]

وقد أورد «رونييه» في ختام تقريره افادات استطلاع وخرائط لمسالك السير والطرقات الصالحة للآليات والبغال في الضنيّة، وذلك لتبيان إمكانيّات عمل المدفعيّة في المنطقة وجوارها، وفد وضعها بين العامين 1927–1928 لصالح السرية الرابعة في الكتيبة الأولى لقوّات المشرق (نرفقها ضمن الملحق).[2]

وكما هو معروف فقد سبق دخول الإستعمار الفرنسي إلى لبنان دخول جيش البريطاني، فخلال الأيام العشرة الأولى من شهر أكتوبر عام 1918 وصل الجيش البريطاني الزاحف من فلسطين إلى بيروت سالكاً الطريق الساحلي. وبعد أن عقد

---

[1] لبنان الشمالي – ص 51–53 و72 و79.

[2] لبنان الشمالي – ص 129–142.

الحلفاء الظافرون مؤتمرًا في مدينة ڤرساي الفرنسية نتج عنه توقيع معاهدة صلح بينهم وبين الدول الخاسرة، تقرر أن تكون فرنسا هي الدولة المنتدبة على سوريا ولبنان.

خلال تلك الفترة كان الجيش الإنكليزي قد تمركز في مختلف أنحاء لبنان وأقام معسكرات له، ومنها في الضنيّة، حيث أقام معسكراً تدريبيّاً في بلدة كفرشلان. ولا تزال آثار قبوات المدافع المبنية بالحجارة والإسمنت موجودة عند أحد سفوح البلدة، وعددها أربعة, وكان الجيش البريطاني يقوم بإطلاق المدفعية المثبّتة بداخلها باتجاه التلال والقمم المقابلة بهدف التدريب. كما بنا الإنكليز من الإسمنت خزاناً ضخماً للمياه تحت الأرض وسط البلدة وذلك لإستخداماتهم عساكرهم اليومية، ولا يزال الخزّان موجوداً ومستخدماً من قِبل أهالي البلدة حتى يومنا. وقام الإنكليز أيضاً بتعبيد ورصف عددٍ من الطرقات الجبليّة، بخاصة داخل محمية اللزاب والأرز في أعالي منطقة بريصا، وذلك بهدف نقل الخشب الذين قاموا بقطعه بشكل كبير من أشجارها لإستخداماتهم الحربية.

القسم الثاني

صفحات من تاريخ وآثار الحضارات القديمة في الضنيّة
والخصائص التقليديّة لتخطيط قراها وعمارة مساكنها التراثيّة

أ.د. مهندس خالد عمر تدمري

جبال لبنان والضنيّة في التاريخ القديم

في البدء كان الماء يغمر لبنان، ثمّ انخفض الماء فظهرت جبال لبنان فتنة وسحراً، وكان يوم لم تكن فيه حياة، وبعد عصور جيولوجية عديدة اخضرّت وديانه واكتست جباله بالغابات فصار يعجّ بالحياة. وقد رأى فيه شعراء التوراة قطعة شعرية: جباله، أوديته، ينابيعه، رائحة أرزه، ثماره، كلها شعر! وعلى هذا المنوال كانت جبال الضنيّة مكسوّة بمياه البحر، وتشير إلى ذلك بقايا النباتات البحرية المتحجّرة على الصخور في أعالي تلالها، ومنها ما وقفنا عليه أثناء إعداد هذا البحث من آثار نباتات متحجرة على جانب من صخرة "شل القلود" الشهيرة في "بطرماز" والمطلّة على مجرى "عيون السمك"، وأيضاً أخرى على حرف صخور الشير المطلّ على الوادي السحيق في بلدة "نمرين".

لا نعرف الكثير عن الإنسان الأوّل الذي استوطن لبنان، لأن التاريخ المدوّن حديث العهد لا يرجع بنا إلى أكثر من خمسة آلاف سنة، وما الخمسة بالنسبة إلى مئات الألوف من السنين السابقة للتاريخ التي كان الإنسان فيها يصارع الطبيعة ليجد نفسه أخيراً سيّد المخلوقات. والقليل الذي نعرفه عن الإنسان الأوّل الذي سكن كهوف لبنان مستمدّ في أكثره من درس الأدوات الحجرية التي تركها لنا، ومن التعرّف إلى بقايا هيكله العظمي المدفونة في أرض الكهف، ففي مغاور لبنان سجل غير واضح المعالم لحياة أجدادنا الأقدمين. وكم تحتاج المغاور العديدة في منطقة الضنيّة لإجراء دراسات جيولوجية وأثرية حولها ولتبيان حياة الإنسان الأوّل في العصور الحجريّة فيها.

جبال لبنان والضنيّة موطن الزراعة والإنسان الأوّل

قبل وضح التاريخ أتى إنسان العصر الحجري على فكرة الزراعة. الزراعة أساس المدنية، ذلك لأن الزراعة تتطلّب استقراراً ونظاماً وتعاوناً. والإستقرار والنظام والتعاون البشري أساس كل حضارة. والزراعة أوحت إلى الإنسان القديم فكرة المدنية وعقائده الغيبية. والإنتاج الزراعي يتوقّف على غزارة المطر وحصب التربة. وبما أنه لم يكن للإنسان يد في سقوط المطر، ولم يكن بعد قد تعلّم تسميد الأرض وزيادة خصوبتها، فكان من الطبيعي أن يعزو خصب التربة وكرم الطبيعة إلى قوى خفيّة. فرأى في الكون قوّتين تعملان معاً: الواحدة للموت، والأخرى للحياة والإنتاج. وما قصّة أدونيس، أو بعل، التي كانت تمثّل في أودية لبنان ورواسيه سوى رمز يرمز إلى خصب الأرض وكرم السماء. وهذه الروايات والأساطير التاريخية لا تزال ماثلة في أسماء بعض قرى الضنيّة، مثل "دبعل" المشتقّة من اسم الإله الفينيقيّ "بعل".

هذا اللبناني الأوّل الذي لم يكن يختلف عرقاً وحضارةً عن عرق البحر المتوسّط تلاشى في العرق الساميّ الذي طغى على البلاد من شمالي الجزيرة العربية. إن البقعة الجغرافية التي تشكّل على الخريطة قوساً تقوم على قاعدته الأولى على زاوية افريقيا الشمالية الشرقية وقاعدته الثانية على الخليج الفارسي – وقد دعاها المؤرّخ برستد "الهلال الخصيب" – كانت منذ فجر التاريخ مطمع الرعاة منذ أن كان هنالك رعاة. الأرض الخصبة التي تجري فيها الأنهار وتتدفق عند سفوح جبالها الينابيع كانت أبداً قبلة أنظار سكّان الصحراء. ولقد كان تاريخ هذه البقعة منذ فجر التاريخ المدوّن إلى العصور الحديثة سلسلة من هجمات البدو على الحضر للسيطرة عليها. هؤلاء البدو هم الساميّون الذين كتبوا في تاريخ الحضارة صفحة مجيدة، وفي تاريخ الأديان صفحات.

يطلّ علينا التاريخ وفي الهلال الخصيب دويلات شعوبها سامية ولغاتها سامية. وليس لنا أن نساير الشعوب السامية في تاريخها المديد المعقّد، إنما يهمّنا أن نتعرّف إلى بعضها، ولا سيّما أولائك الذين استوطنوا لبنان القديم وسمّوا القرى والمدن والأنهر والجبال بأسماء من لغاتهم، وقد أطلقوا على هذه البقعة اسم "لبنان" ومعنى لبنان البياض.

أسماء الأمكنة في لبنان والضنيّة وأصولها

يتضّح ممّا ذكرناه أن أسماء الأمكنة في لبنان قديمة جداً، يرجع بعضها إلى الفترة السابقة للتوطّن السامي، ويعود أكثرها إلى أسماء ساميّة بحتة: أمّوريّة، كنعانيّة، فينيقيّة، آراميّة. وبما أن جذور هذه اللغات مشتركة فإنه يصعب على الباحث أن يقرّر إذا كان الإسم كنعانيّاً أو آراميّاً إذ ليس لدينا مصادر كتابيّة سوى الإسم ذاته. ولكن يمكن القول بصورة عامّة أن أكثر أسماء القرى اللبنانية، ومن بينها قرى الضنيّة، تعود في الزمن إلى الفترة المسيحيّة الأولى عندما أصبح أهل لبنان يعرفون باسمهم النصراني: السريان، لأنه عندما انتصرت الشعوب الآرامية تخلّت عن اسمها الآرامي القديم، فالتسمية كانت تذكّرهم بوثنيتهم، وصارت تعرف باسم جديد "السريان".

أمّا الأسماء العربية فقليلة جداً، وذلك لأن العرب لم يدخلوا فراغاً جغرافياً بل قدموا بلاداً آهلة بالسكّان عامرةً بالمدن والقرى، ولكل بقعة جغرافية اسمها. ومعروف أن الشعب الفاتح قد يحاول تغيير الأسماء الجغرافية لأسباب سياسية اجتماعية كما فعل الإغريق والرومان عندما حاولوا تأسيس مدن تكون لهم مراكز ثقافية، أو عندما حاولوا أن يغيّروا بعض الأسماء كما فعلوا بأسماء بيروت، وجبيل وبعلبك وطرابلس وغيرها. ولكننا لا نعرف أن العرب غيّروا أسماء قديمة، نعم أطلقوا أسماء جديدة على مدن وقرى عمّروها بأنفسهم، ولكن الأسماء السامية القديمة لم تكن غريبة عندهم كما كانت بعلبك للإغريق والرومان وذلك للقرابة العرقية واللغوية. فبقيت الأسماء الجغرافية على ما كانت عليه، ولكننا نتظر أن يكون قد طرأ عليها بعض التغيير والتبديل. وليس هذا بمستغرب لا سيّما وأن أهل البلاد نسوا لغتهم الأصلية السريانية وأصبحوا يتكلّمون العربية. وعلى مرّ الزمن بعدت الشقّة اللغوية فكان من الطبيعي أن تبتعد بعض الأسماء عن شكلها الأصلي.

إن تسمية الأمكنة والمدن والقرى في لبنان، ومن بينها في الضنيّة، لا تختلف مبدأً عن التسمية السامية العامّة. فإن أكثر هذه الأسماء وصف جغرافي: علو، انخفاض، سهل، وعر، خصب، جدب، ماء، صخر، بئر.. وما شابه من الأوصاف الطوبوغرافيّة للبلاد. كما هي على سبيل المثال تسميات قرى: بقاع صفرين = سهل العصافير، وبقرصونة = مكان البرد والصقيع، وقرصيتا = موقع الصقيع والجليد، وبشنّاتا = محلّ الصخور الشاهقة المعلّقة والقمم المسنّنة. وهناك أسماء أمكنة عديدة تنسب إلى إله قديم: البعل الفينيقي، نابو، رمّان، عشتار. ويميل المؤرّخون إلى الاعتقاد بأنّ أسماء الأمكنة التي فيها لفظ "دير" (مثل دير نبوح في الضنيّة) أو "مار" كانت قديماً أسماء معابد وهياكل لآلهة الفينيقيّين سكّان البلاد القدماء. وقد لا تكون من المبالغة إذا زعمنا أن كل معبد أو دير أو مزار أو أية بقعة مقدّسة قائمة على روابي لبنان أو في وهاده كانت يوماً أماكن مقدّسة قديمة ومعابد لآلهة لبنان القديم. وقد أشار إلى هذه الحقيقة أكثر من مستشرق درس لبنان وآثاره، ومنهم العلاّمة الفرنسيّ "أرنست رينان" في كتابه الضخم "بعثة في فينيقيّة" الذي أشار في أكثر من مكان واحد فيه إلى معابد وقصور الأمراء المقدّمين في لبنان المبنية بحجارة معابد فينيقيّة قديمة. كما لاحظنا ذلك أثناء بحثنا الميداني في أجزاء من أبنية ضخمة واقعة في قرى طاران، بطرماز، عيمار، نمرين، وقرحيّا.

نحو اكتشاف آثار الإنسان القديم في الضنيّة

أثناء إعداد هذا البحث كان قد تمّ العثور صدفة على مدفن قديم في خراج "بلدة طارن" وُجد فيه أوانٍ جنائزية فخّارية صغيرة وعدد من القطع المعدنية على شكل سهام حربية، وقم تمّ نقلها إلى المديريّة العامّة للآثار لتحديد تاريخها.

كما كان قد عُثر صدفةً منذ أعوام في خراج بلدة "كفر حبو" أثناء عملية تكسير للصخور في مرملة تسمّى "أبو عفتة" على تمثالين عبارة عن ثلاثة وجوه ذات جمجمة كبيرة منقوشة على قطعتين من الصخر، وجهين لرجلين مختلفين منقوشة بشكل مزدوج من الأمام والخلف على قطعة واحدة، والثاني لإمرأة، ويصعب تحديد الحقبة التاريخية التي تعود إليها هذه الوجوه حيث لا تعكس أيّاً من فنون الحقبات التاريخيّة المعروفة من الفينيقيّة إلى الرومانيّة، وعلى الأرجح أنها تعود إلى ما قبل ذلك أيّ إلى عهد الإنسان البدائي القديم، وهي محفوظة حالياً في دارة ببلدة كفرحبو. وكمّ هي كثيرة المواقع في الضنيّة التيُ سمع وعُرف أن لصوص الآثار والباحثين عن الذهب قاموا بحفرها ونبشها وتخريبها وسرقة محتوياتها هنا وهناك في أرجاء المنطقة خلال النصف الثاني من القرن الماضي ولم يتسنّ للباحثين الإطلاع عليها أو توثيقها.

الحضارة الفينيقيّة في لبنان وإرتباطها بغابات الأرز

ينتمي أصل الفينيقيين إلى علم الآثار بقدر ما يعود إلى الأساطير والخرافات. سكن هذا الشعب الساحل الشرقي من البحر المتوسط (الشاطئ اللبناني والسوري في الزمن الحاضر)، وأكد قدراته وصفاته البحرية، وكانت سفنه وبحارته من الأشهر والأكثر خبرة من المستكشفين في العالم القديم، وذلك منذ الألف الثاني قبل الميلاد. سافر

الفينيقيّون عبر جميع البحار المعروفة وغير المعروفة في هذه الفترة، وأنشأوا العديد من المدن والمراكز التجارية وذلك بين القرن الثالث عشر والقرن التاسع قبل الميلاد.

حدّد بعض المؤرخين أن اسم الفينيقيين أطلق عموماً على الشعوب الذين سكنوا الساحل الشرقي للبحر التوسط في العصر الحديدي، وذلك بين الغزوات التي شنّها "شعوب البحر" والتي هزّت المنطقة حوالي العام ١١٨٠ ق.م. ودخول الإغريق واحتلال المنطقة من قبل الإسكندر الكبير وجيوشه في العام ٣٣٢ ق.م. في هذه الفترة نجد الكثير من الوثائق عند اليونانيين التي كانت تعتمد اسم "الفينيقيين" للتعريف عن سكان مدن هذا الساحل.

في القرون القديمة وعبر التاريخ تأثرت الأراضي الفينيقية، ومن قبلها بلاد كنعان، بالوضع الإقليمي وتعدد السلطات، فامتدت أو تقلّصت الحدود بحسب الاحتلالات أو الاتفاقات مع الإمبراطوريّات المختلفة التي فرضت نفوذها، بشكل أو بآخر، على المنطقة. حدود أرض كنعان غير واضحة، ولكن وفقاً لنصوص الكتاب المقدس، امتدت من مدينة أوغاريت شمالاً إلى جبل الكرمل في الجنوب.

يعود أول ذكر لبلاد كنعان إلى منتصف القرن الخامس عشر قبل الميلاد وفي كتابات أدريمي وسيرة حياته (ملك إقليم إلالاخ، تل العطشانة الحالية على مصب نهر العاصي)، وكذلك في رسائل تل العمارنة (أرشيف الفراعنة). كتب هكاتيوس من ميليتوس، المؤرخ الإغريقي، بعد ما يقرب من الألف سنة، أن فينيقيا كانت تسمى "شنا Chna" بمعنى كنعان. أمّا بالنسبة إلى الإنجيليّ متّى، كانت بلاد كنعان ترمز إلى

منطقتي صيدا وصور. عبر هذه الأمثلة القليلة يبدو من الصعب أن تحدد في الوقت تسمية "بلاد كنعان" واستبدالها بالمصطلح الفينيقي، لكن من المعروف أن الإغريق هم الذين اعتمدوا هذا المصطلح للحديث عن شعوب الساحل الشرقي من البحر المتوسط.

كما ذكرنا، الإغريق هم أوّل من اطلقوا اسم فينيقيا على المدن الكنعانية وذلك منذ القرن السابع قبل الميلاد، فكانت الأراضي الفينيقية تمتد على النطاق الساحلي بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، من جبل الأقرع في الشمال إلى مدينة حيفا في الجنوب. شملت هذه المنطقة العديد من المدن المشهورة: أوغاريت (رأس شمرا)، أرواد، طرابلس، جبيل، باريتوس (بيروت)، صيدا، صور وعكّا. أما إلى الداخل فامتدت الحدود إلى البقاع، كانت بعلبك (هليوبوليس على عهد الرومان) من أشهر هذه المواقع. احتلت المدن الفينيقية مساحات متنوعة بين المراكز البحرية، والسهول الصغيرة والمناطق النائية من الجبال، حيث تنمو أشجار الأرز، وكانت حركة المرور والتنقل صعبة بسبب المعالم الجغرافية. الوصول إلى المناطق الداخلية كان ولا بدّ أن يتم عبر ومن خلال سلسلتيّ جبال لبنان الوعرة التي يتراوح طولها مسافة الساحل المحاذي، وحيث غالباً ما يغرق الجبل مباشرة في البحر.

استعمل الفينيقيّون خشب الارز في ميادين متعدّدة كما في صناعة السفن، ونقلوه معهم أينما توجّهت مراكبهم وبنوا به أماكن العبادة والجسور. وعلى متن سفنهم نقلوا ألواح خشب الأرز إلى مصر حيث كان يُستعمل في بناء المعابد والقصور وصناعة السفن المصرية وقطع أثاث الفراعنة. ومن الرائج أيضاً أن راتنج الأرز كان يمثّل مادةً

أساسية لا غنى عنها في الطقوس الجنائزية وخاصة في عملية تحنيط الموتى، كما في معالجة عدد من الأمراض، واستخدم صمغه كمادة عازلة.

– غابات الأرز

ومن أكبر غابات الأرز المعروفة في لبنان تلك الواقعة في كفربنين بالضنيّة التي تبلغ مساحتها مليونين و120 ألف متر مربّع، هذا فضلاً عن وجود غابة اللزاب في القمامين – جيرون (نحو 3 ملايين متر مربّع)، وغابة الصنوبر البريّ في بطرماز – السفيرة (نحو 4 ملايين متر مربّع). وكما تذكر المصادر التاريخيّة، فإن الفينيقيّين اعتمدوا على الأنهار المتدفقة من أعالي الجبال باتجاه ساحل البحر لنقل ألواح الخشب، وهكذا نقل الفينيقيّون خشب الأرز والصنوبر من أعالي الضنيّة وبشريّ إلى ساحل طرابلس، وعبر مينائها قاموا بتصديرها إلى مصر. وهكذا فعلت شعوب الحضارات التي تلتهم والجيوش الغازية، وصولاً إلى الإنكليز الذي قاموا بتعبيد الطرقات داخل غابة أرز الضنيّة لتسهل عليهم عملية قطع ونقل أخشابها لاستخدامها في أغراضٍ حربية.

وحدهم الرومان حافظوا على غابات الأرز ونظّموا قطعها. فمن ما يُذكر من فضل الرومان أنهم لما دخلوا بلاد الشام عرفوا أن غنى لبنان يقوم بغاباته وضروب أشجاره التي تجمّل مشارفه. ولعلهم رأوا بعض الأهلين يحملهم طمعهم بالربح على أن يقطعوا تلك الأشجار دون نظام وحكمة، ، فعمد الإمبراطور الروماني "ماريانوس" (831–711 ق.م.) إلى اتخاذ تدابير من شأنها حماية عددٍ من أصناف الأشجار التي كانت تنمو في جبال لبنان، وقد تمّ مسح الأحراج والغابات بهدف تحديد الأصناف التي

كان قطعها ممنوعاً والتي كانت تعتبر بمثابة محمية امبراطورية، وهي أربعة أصناف: العرعر والسرو والصنوبر والأرز، وكلّها من الأشجار الجبلية الصلبة الخشب والوارفة الظل، فلم يُسمح للأهلين بقطعها. وقد عيّن لذلك مهندسين من أرباب المزارعين، لا يقطعون شجرة إلاّ غرسوا غيرها. ومن بين الكتابات الرومانية المكتشفة في لبنان، كتابةٌ يستفاد منها أن أهل لبنان مخيّرون بقطع بعض الأشجار دون غيرها، أي الأصناف المذكورة آنفاً.

تتمتّع جذور الأرز بضخامة ملحوظة واستقامة مميّزة وتتحمّل ضغط الأثقال ومقاومة التهرّؤ والعفن، كما استخدمت قشرة الخشب وزيت الأرز لمداواة عدد من الأمراض وفي عملية التحنيط عند الفراعنة.

الحضارة الرومانيّة في لبنان وآثارها في الضنيّة

فتح بمبيوس القائد سورية سنة 64 ق.م. وجعلها إقليماً رومانياً. فبسطت روما سيطرتها على لبنان وأفاضت عليه نعمها السابغة كمألوف عادتها مع الأقطار الخاضعة لدولتها، ونعمت المدن الفنيقية بالازدهار الاقتصادي والفكري والثقافي. ومآثر الرومان في أنحاء لبنان متعدّدة حيث خلّدوا فيه ذكراً طيباً.

فقد اشتهر الرومان حيثما حلّوا بتنفيذ المشروعات النافعة لعموم رعاياهم. فكانوا إذا استولوا على قطر يسرعون إلى فتح السكك فيه، يخطّطها المهندسون ويقوم بنهجها فرقٌ من الجند تحت نظارتهم، فيمهدونها ويرصونها بالحجارة ويوثرونها توثيراً حسناً لتصبر زمناً طويلاً على طوارىء الجو وضغط العجلات. وكانت غايتهم من فتح تلك

السكك أن يمهّدوا الطرق لجيوشهم ثم يسهلّوا المواصلات بين أنحاء البلاد تنشيطاً للتجارة والمعاملات. ولم يثن عزمهم ما لقوه في لبنان من المسالك الوعرة والصخور الشمّاء، بل فتحوا في الجبال عدة سكك لم تقوَ عليها عوامل الخراب إلاّ بعد ممرّ الدهور، فمنها ما تزال آثارها في السواحل على مسير شاطىء البحر، ومنها ما يتوسّط لبنان، كالطريق المنشأة من جبيل إلى بعلبك والتي تجتاز أعالي جبال لبنان وتقطّع صخوره الصمّاء. ونجد بقايا سكك أخرى كثيرة في نواحي الجبال شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، ربّما دلّت عليها أنصاب أقاموها على أطرافها من ميل إلى آخر لتدوين المسافات بين بلدٍ وبلد، مع ذكر اسم القيصر الذي أمر بإنشاء الطريق.

علم الرومان أن الفينيقيّين حريصون على حفظ دينهم، فأحبوا أن يستعطفوهم بمساعدتهم على بناء الهياكل الفخمة واحترام مشاعرهم الدينية. وقد سبق أن اليونان يوم تملكهم على فينيقية أن تساهلوا مع أهلها في أمر معبوداتهم، وتركوا لهم جوهر دينهم، واكتفوا بأن كسوها بمسحة يونانية في الظاهر. وكذلك فعل الرومان، فقد اعتبروا الدين الفينيقي شبيه دينهم الروماني، لا يخالفه الا بالعرض، فاكتفوا بأن يسمّوا آلهة الفينيقيّين بأسماء آلهة رومانية. ومن ثم صرفوا القناطير المقنطرة على الهياكل التي شيّدوها، أو رمّموها بعد خرابها في أنحاء لبنان، والتي تجاوز عدد المعروف منها 60 معبداً.

- حصن السفيرة الرومانيّ

ومن هذه المعابد الدينيّة التي قاموا بتشييدها، حصن السفيرة في الضنيّة، الذي يشكّل ثاني أكبر مجمع دينيّ رومانيّ مساحةً في لبنان بعد بعلبك. فعلى ارتفاع يقارب 1350

متراً عن سطح البحر، يقع الموقع الأثري المعروف "بقلعة الحصن" أو "حصن السفيرة"، وهو عبارة عن مجمّع مؤلّف من أربعة معابد أعلى البلدة وخامس أسفلها وعدد من المذابح التذكارية، اسمها مستوحى من اسم القائد الروماني "سبتيموس سفيروس" الذي أنشأ خلال القرن الثاني الميلادي في السفيرة حصناً ليكون مقراً له، وقد أقيم هذا المجمع على منحدر جبلي يطل على البلدة.

ومن المعروف أنه وعبر التاريخ أطلق الناس تسمية قلعة أو حصن على جميع المعالم التي تمتاز بضخامتها وعادةً تعلو الجبال، وهي بمعظمها إمّا معابد رومانية (كما هو الحال بالنسبة لقلعة "نمرود" في بطرماز، و"قلعة العرايس" في القمامين بعكّار المجاورة للضنيّة)، وإمّا صخور طبيعية ضخمة تبدو من بعيد على شكل حصن أو قلعة (كما هو الحال بالنسبة لقلعة "نبع السكّر"، و"قلعة عُميرة" في مزارع بيت شوك في بريصا، و"قلعة القلود" في بطرماز).

قد لا يكون الوصول إلى مجمع معابد السفيرة بالأمر السهل بالنسبة إلى من لم يعتد المشي في الجبال. بيد أن الغبطة ما تلبث أن تخالج الزائر الذي يبلغ الموقع حالما يكتشف تلك الجماليّات الطبيعية التي يمتاز بها والتي تحيط بهذه المجموعة الفريدة من الهياكل والمذابح المعومدة والبنى الدينية الأخرى التي شهدت بعض أعمال الترميم والتأهيل في غضون الفترة التي سبقت اندلا ع الحرب اللبنانية.

لا يزال الهيكل الكبير في السفيرة يحتفظ بصحنه الداخلي وبقدس أقداسه، بيد أن جبهته المثلثة قد انهارت بفعل الزمن. أمّا بوابته الرئيسية فتحيط بها بوابتان صغيرتان

تفضي إحداهما، وهي اليسرى، إلى درج يخترق سماكة جدار واجهته ويؤدي إلى سطحه. وكان يسبق واجهة الهيكل في ما مضى صفان من الأعمدة، في كل صف منهما ستة أساطين. ويبدو من خلال اتساع الدكّة التي ينتصب عليها الهيكل أنها أقيمت لتحمل رواقاً معومداً يلف الهيكل من الخارج. وتزيّن جدار الهيكل من الداخل والخارج على السواء دعائم ناتئة متناسقة الأبعاد.

بموازاة الهيكل الكبير أقيم في العصر عينه أي خلال القرن الثاني الميلادي معبد آخر، أصغر منه حجماً، وما زالت بقاياه تنبئ عن مخططه. وقد كان لهذا الهيكل مدخل على شكل سقيفة تحدها دعامتان ركنيتان بارزتان ويرتفع بينهما عمودان. وفي مقابل هذا المدخل، إلى الخارج، عثر على بقايا مذبح الأضاحي التابع للهيكل. تجاه الهيكل الكبير، إنما على مستوى أدنى من مستواه وبشكل متعامد معه، تقوم أطلال معبد ثالث ما تزال مداميكه السفلى قائمة، فيما بني هيكل رابع على جرف يشرف على الموقع. وفي الموقع أيضاً عدد من المذابح المعومدة، وهي من البنى التي تشكل ظاهرة مميزة في المجمعات الدينية الرومانية في لبنان، ويمكن مشاهدة نماذج كثيرة منها منتشرة في معظم المواقع، من أمثال قلعة فقرا وبيت مري في محافظة جبل لبنان، وبلدة قصرنبا في البقاع وغيرها. وقد يكون المذبح ببلدة المشنقة الواقعة إلى الشرق من جبيل، النموذج العمائري الفريد لمثل هذه البنى، وقد أقيم في وسط حوز مقدس مسور يشكل الحرم المحيط به.

وإلى الجنوب الغربي من بلدة السفيرة أساسات عظيمة تعود إلى معبد خامس من العصر الروماني عينه يطلق عليه الأهالي اسم "البيت الكبير"، غير أن المنشآت الحديثة

قد أخفت بعض معالم هذا البناء الضخم وحجبت شكل مخططه. وترتفع أمام هذه المعابد وفي أرجاء الموقع المذابح المعومدة، التي لم يستطع علم الآثار حتى اليوم تحديد أوجه استعمالها بشكل قاطع.

بالإضافة إلى أهمية معابد السفيرة التاريخية، يتميّز موقع حصن السفيرة بجمال طبيعي خلاّب. فمن أعلى القمة التي تعلو هذه المعابد يمكن رؤية الساحلين السوري واللبناني. ويعني عبور هذه القمة الوصول إلى سهل البقاع، وبالتالي فقد شيّد الرومان هذه المعابد على طريق الوصل بين الساحل والداخل. غير أن هذا المعْلَم الأثري والسياحي المهم يعاني الإهمال، فقد سرقت منه أثناء فترة الحرب العديد من الحجارة المزخرفة والتماثيل، ونبتت الأعشاب البرية في أنحائه، وبدأت الأبنية غير المرخّص لها بتشويه محيطه مع اقترابها منه، ويبقى الخوف من ارتفاع عددها في المستقبل إذا لم تبادر الجهات المعنية إلى إيلائه الاهتمام اللازم للمحافظة عليه. ومن أجمل النصب المزخرفة في حصن السفيرة، تمثال لرجل مقاتل يمثّل حارس المعبد أو المجمّع على الأرجح، وهو منحوت على قطعة حجرية واحدة بارتفاع نحو المترين وله ثلاث واجهات (جرى رميُه على وجهه اليوم بين الحجارة المبعثرة خارج المعبد الكبير لإخفاء جماليّاته خوفاً من سرقته)، ومذبح المعبد العلوي الأول الذي يحمل نقش نجمة يخرج منها شعاع شمسي، هذا فضلاً عن العديد من تيجان الأعمدة وقطع الأفاريز المزخرفة المنتشرة في محيط المعابد.

- في بطرماز: قلعة حكمون النمرود أم موقع جنائزيّ رومانيّ؟

بطرماز بلدة جبلية، تتميّز بتلّة مروّسة مرتفعة وسط تلال غابات صنوبرها مطلّة على نهر "موسى"، يقع أعلاها موقع روماني أشبه بقصر أو معبد أو ربما مدفن قسم منه محفور في الصخور، وتقع أسفل التلّة لجهة النهر عند مدخل قرية قرحيّا بقايا معبد ثانٍ، لا تزال مداميك قاعدته المبنية بحجارة ضخمة قائمة، يقابلها محاريب و نواويس محفورة في صخور التلة، يفصل بينهما الطريق.

الموقع يُنسب حسب الرواية الشعبية إلى نمرود، مع العلم أن نمرود الملك يُنسب إلى الحقبة الأكادية البابلية، أي أنه سبق الحضارة الرومانية بأكثر من ألفي عام، كما أنه لم يأت أي مصدر تاريخي على ذكر آثار تعود لنمرود في لبنان. وقد يُعزى تسمية أهالي المنطقة للموقع باسم نمرود إلى الرسم المنقوش على الصخرة الكبيرة التي تعلو التلّة والتي يظهر فيها ملكٌ يجلس على عرش ويباركه إله يقف أمامه، ويوجد على الصخرة نفسها كتابة رومانية نسعى إلى ترجمة أحرفها شبه الممحيّة.

يُصعد إلى التلّة الشديدة الإنحدار عبر ممرّات مرصوفة وأدراج حجرية محفورة بيد الإنسان، معظمها متضعضع ومنهار اليوم بفعل الزلازل والعوامل الطبيعية من جهة، وبفعل أعمال الحفر العشوائية التي قام ولا يزال يقوم بها لصوص الآثار في الموقع من جهة ثانية. ويصادف الطالع إلى أعلى التلة مغارات محفورة في الصخر وفتحات في الأرض هنا وهناك، تنتشر حولها كميات كبيرة من قطع الفخّار المكسورة والمبعثرة، إلى أن تصل الطريق إلى باحة علوية صغيرة تحدّها صخرة ضخمة مرتفعة تشكّل قمّة التلّة، نُقش على واجهتها المطلة على الباحة النقشان المذكوران وحولهما حُفر مربعة صغيرة تشير على ما يبدو إلى مداميك أو عوارض خشبية كانت مثبتة فيها لتشكّل

سقفاً للمكان، والذي يبدو كان معبداً أو مذبحاً أو مزاراً. وإلى يسار الباحة توجد فتحة بئر عميق، أما أعلى الصخرة وعلى امتداد طولها حيث تتشكل قمّة التلة، فتوجد محاريب وأدراج وممرّات منقوشة في الصخر، ويقع إلى جانبها وعلى مستوى منخفضٍ مطلٍ على النهر باحة صغيرة ثانية كانت مرصوفةً بلوحات من الفسيفساء، ذكر لنا أحد كبار السن في الضنيّة أنه شاهد فيها منذ نحو 18 عاماً رسوماً لطيور وطاووس. وقد عثرنا بالفعل في الموقع أثناء إعداد بحثنا على بقايا قطع صغيرة من تلك اللوحات. ويوجد أسفل التلة عند منتصف ارتفاعها تقريباً غرفة محفورة في الصخر قيل إنه كان فيها مقابر، وأخرى واسعة يصل عمقها إلى ثمانية أمتار محفورة في التلة أيضاً. وعند كعب التلة لجهة النهر نجد بيتاً لآل الأبرش استُخدمت في بناء تصوينة حديقته حجارة من بقايا المعبد، وقفنا على واحدة مزخرفة بينها تعكس فن النقش الروماني.

وعن فحوى النقش الكتابي المنقوش أعلى التلة، فقد تعدّدت في لبنان الكتابات الحجرية اليونانية في أيام السلوقيّين كذلك أيام الرومان، وأبقوا لنا عدداً كبيراً من كتاباتهم اللاتينية في أنحاء الجبال، وعن احتمالات معاني تلك الكتابات ما يلي:

1- كثير من هذه الكتابات هي نذور وأدعية وتقادِم لمعبودات محليّة؛

2- ومن هذه الكتابات ما ورد فيه ذكر القياصرة الرومان في أنصاب أقيمت إجلالاً لهم؛

3- وربما نقشت هذه الكتابات تنويهاً بذكر أحد أرباب الدولة؛

4- ومنها كتابات مدفنية وعددها وافر؛

5- وبعض هذه الكتابات لغايات معلومة، كتحديد حدود الأملاك أو تعريف أصحاب الأملاك أو شكر على نعمة وما شابه ذلك.

– الآثار الرومانيّة في نمرين

يوجد في نمرين بعض المعالم الأثرية غير المعروفة العهد، منها ناووسان متلاصقان منحوتان في الصخر يعرفان بقبور الملك والملكة،، بالإضافة إلى محراب رومانيّ يرتفع نحو المترين، له حنية نصف دائرية مزخرفة بشعاع شمسي ومحمولة على عمودين مزيّنين بأشكال نباتية، وقد تمّ إعادة استخدامه كمحراب لمسجد البلدة أيام حكم بني سيفا وهو مثبّت باتجاه القِبلة. هذا إضافةً إلى معاصر محفورة في الصخر، وحجارة ضخمة منها ما هو أسطواني كانت مستخدمة في المعاصر، ومغارة قديمة كبيرة يطلق عليها اسم "مغارة الذهب"، وتقع كلّها في "تل نمرين" القسم العلوي من القرية الذي يشرف على الوادي العميق بين نمرين وبقرصونا.

– مداميك وحجارة تدل على بقايا معابد رومانية

أثناء إعداد البحث وقفنا على ثلاثة مواقع مختلفة غير معروفة في المصادر والدراسات التي تناولت آثار الضنيّة، تدل بوضوح على وجود بقايا معابد رومانيّة فيها:

1- **وسط بلدة طاران بيت آل طراد الكبير**: الذي يمتاز طابقه السفلي بمداميكه الحجرية الضخمة والنافرة من وسطها والتي تشير إلى أن البناء كان سابقاً بناءً أو معبداً رومانياً.

2- **في قرية عيمار في الحوائط الخارجية لدارة أغوات آل رعد:** ساكف حجري ذو إفريز مزخرف بنقوش رومانية وعددٌ من الحجارة الضخمة أعيد استخدامها أثناء بناء الدار نهاية القرن التاسع عشر (استخدم لاحقاً كمدرسة للبلدة، وحالياً كمبنى الدفاع المدني).

3- **في قرية داريّا بقايا مداميك رومانية في أساسات الكنيسة البيزنطية المدمّرة:** تبدو الكنيسة في الأساس قائمة على معبد روماني حيث حجارة قاعدة الجدران والزوايا ضخمة جداً.

هذا مع الإشارة مجدّداً إلى قرية دبعل: التي تستمدّ اسمها من الإله بعل، وبالتالي لا بدّ أنها كانت تضمّ معبداً مخصّصاً له، لا نجد أثراً له اليوم.

– معاصر العنب الرومانيّة

باتت معاصر العنب الحجرية القديمة، المنتشرة في معظم قرى وبلدات الضنيّة، معالم تراثية منسية ومتروكة للزوال، تحوّلت مع الانخفاض في إنتاج الكرمة وتوقفها عن العمل إلى مواقع مهملة، تجسّد في حناياها فسحة تعيدها بالذاكرة إلى حقبة كانت فيها زراعة الكرمة وحقول العنب بمختلف أنواعه منتشرة بشكل واسع في هذه المنطقة الجبلية الخصبة، نظراً لمناخها المعتدل، وطبيعة تربتها الملائمة لهذه الزراعة، التي تراجعت وبنسبة مرتفعة خلال نصف القرن الماضي لصالح شجرة الزيتون.

هذه المعاصر المنحوتة والمحفورة وسط صخور صمّاء، والتي تعود بمعظمها إلى الحقبة الرومانيّة، تضم مصاطب حجرية واسعة، وإلى جانبها مجموعة من الأجران المحفورة في

الصخور، منها على شكل دائري وأخرى مربعة بعرض حوالى المتر وبعمق لم يتجاوز الـ70سم، وعلى بعد أمتار منها تقع "الموقدة" التي تكون عادةً بعرض يتجاوز الـ125 سم وبارتفاع نحو 75 سم، حيث يتم إشعال الحطب كوقود للنار تحت الوعاء الكبير المسمى باللهجة الشعبية "خلقينة" الذي يملأ بعصير العنب، ويستمر إشعال النار تحته ما بين 3 إلى 4 ساعات، وهي الفترة اللازمة لطبخ العنب، عبر تحويله من عصير عادي إلى مادة لزجة وكثيفة تلازم صفة الدبس البلدي. موسم الدبس كان فرصة للقرويّين يجتمعون خلالها ويتعاونون في قطف الكروم، ونقل المحصول الى المعصرة بواسطة الدواب، ثم تحضير الحطب، لتبدأ بعدها رحلة العصر والطبخ ومن بعدها تبريد الدبس، لاستيعابه في خوابي وجِرار فخّارية تحفظه من عام لعام. معاصر العنب الحديثة أوقفت العمل بالمعاصر الحجرية، فتركها أصحابها لتتحوّل إلى أمكنة مهجورة تملأ أجرانها مياه الأمطار وتتجمّع النفايات في مواقدها.

وتوجد في الضنية أمثلة لهذه المعاصر والأجران والمحادل المستخدمة لعصر العنب: في قرى كهف الملّول، دير نبوح، بطرماز، بخعون، داريّا، عيمار، نمرين، السفيرة، الحوّارة، دبعل، وإيزال.

– النواويس الرومانيّة

ناووس باللاتينية Sarcophagus، وباليونانية Σαρκοφάγος، وترجع للأصل اليوناني وتعني "آكل اللحم"، هو تابوت يصنع من الحجر، وكما يقول "بليني" فإن

هذا التابوت يلتهم الجسد في أربعين يوماً، وفقا لخصائصه الكاوية. وكذلك أطلق اليونانيون هذه التسمية على صندوق قبري يصنع من الحجر أو غيره وتزينه زخارف أو نقوش متفاوتة حسب الناووس، أو محفور بشكل غائر داخل الصخر.

وقدّ تمّ الوقوف في الضنيّة أثناء إعداد هذا البحث على عدّة مواقع تضمّ نواوييس ومدافن محفورة داخل الصخور، في قرى عيمار، بحويتا، بطرماز، نمرين، دبعل، وإيزال.

المعالم الدينيّة المسيحيّة والإسلاميّة في الضنيّة

تزخر الضنيّة بمعالمها الأثرية الدينيّة المتنوّعة لدى السُّنّة والطوائف المسيحيّة، كما بمقامات عددٍ من الأنبياء والأولياء الصالحين. وقد غاب عن كتب التاريخ التي تُدرَّس في مدارسنا وجامعاتنا أن لبنان يقع في صميم الأرض المباركة من حول بيت المقدس، مِصداقاً لقوله تعالى: *((سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله))*، وأن هذا القطر الصغير تقدّست أرضه بأقدام الأنبياء أُولي العزم التي وطئته، إبتداءً بالنّبي "نوحٍ" عليه السلام، وهو حسب المصادر صنع سفينته من خشب لبنان وركبها من عنجر. وفي بلدة الكرْك في قضاء زحلة قبر منحوت بالحجارة طوله نحو أربعين متراً، يقال إنه قبره، ولهذا سُمّيت البلدة باسمه كرْك نوح. أمّا في الضنيّة فيوجد:

1- **مقامٌ يُنسب للنبيّ يعقوب عليه السلام:** (هو ابن إسحاق بن إبراهيم ووالد النبيّ يوسف عليهم السلام وأحد الأنبياء المذكورين في التوراة والقرآن) يقع في قرية

القطران ضمن حدود بلدة عاصون، تحيط به أشجار الصفصاف والسنديان المعمّرة، ويقال إن النبي يعقوب أقام في هذا الموقع أثناء بحثه عن ابنه يوسف، وقد بني مصلًّى صغير بجواره؛

2- **ومقامٌ ثانٍ يُنسب للنبيّ موسى عليه السلام**: (هو نبيّ وقائد خروج بني إسرائيل من مصر وينتسب إلى سبط لاوي بن يعقوب وأحد الأنبياء المذكورين في التوراة والإنجيل والقرآن) يقع في قرية قرحيّا، ويطلق على النهر المتدفق في البلدة على امتداد الوادي باتجاه بحيرة عيون السمك اسم "نهر موسى"؛

3- **ومقامٌ ثالث يُنسب إلى النبيّ مرمر**: يقع في بلدة بطرماز وسط غابة من شجر الدلب والسنديان الوارفة، والموقع صخريّ مطّل على مجرى نهر موسى، يزوره المؤمنون باستمرار حيث يشعلون البخور في أرجائه. ولا تذكر المصادر التاريخيّة أية معلومة عن هذا النبيّ، مع الإشارة إلى وجود غابة في منطقة جرد القيطع في عكّار تُعرف باسمه أيضاً، وهي "غابة النبيّ مرمر" الواقعة بين قريتيّ بيت أيوب والقرنة.

وليس بالضرورة أن يكون المقام المنسوب إلى أحد الأنبياء مدفناً له، فحسب بعض الروايات أنه قد يكون مرّ به فقط أو أقام فيه لفترة، وخلّد الناس بعدها اسمه على الموقع تكريماً وذكرى، وتوارثها الناس من جيل إلى جيل وحافظوا على التسمية. وربما هذا ما يبرّر وجود عددٍ كبير من المقامات المنسوبة إلى النبيّ نفسه في عدة مناطق على امتداد دول الشرق الأوسط وأحياناً داخل البلد الواحد، كالمقامات المتعدّدة المنسوبة إلى النبيّ الخضر في لبنان.

وفي سنة 395 ق.م تبعت بلاد الشام ولبنان الدولة البيزنطية، ممّا كان عاملاً لاستمرار ازدهارها لقرن كامل. وفي القرن السادس الميلادي ضربت البلاد زلازل أدّت إلى تدمير العديد من معالمها. أمّا أُولى الكنائس في لبنان فقد بُنيت في غضون القرنين الثاني والثالث الميلادي حسبما تشير المصادر التاريخيّة، وأقيمت بمعظمها على أنقاض أو بقايا معابد وثنية، أغلبها رومانيّة. وتُعدّ بقايا الكنيسة المرجّح أنها بيزنطيّة والواقعة في قرية داريّا (والتي سنأتي على وصفها المعماري لاحقاً) أقدم المعالم الأثريّة المسيحيّة في الضنيّة على الإطلاق.

أمّا الفتح الإسلاميّ في لبنان فحدث حوالى سنة 25 هـ./645 م. (كما تمّ سرده تفصيليّاً في الدراسة التاريخيّة)، والمعروف أن أوّل شيء كان يفعله الفاتحون في البلاد هو بناء المساجد امتثالاً لخطبة "أبي بكر الصّدّيق" رضي الله عنه عندما وجّه الجيش إلى الشام إذ قال: *"إن عليكم أن تبنوا المساجد فلا نعلم أنكم إنّما تأتونها تلَهّياً"*. وهكذا بُنيت المساجد الأولى في المدن المفتوحة، وسمّي أوّل جامع في بيروت وفي صيدا "بالجامع العمريّ" تيمّناً باسم الفاروق عمر رضي الله عنه. ولا نعلم إن كان هذا المبدأ ينطبق أيضاً على تسمية "الجامع العمريّ" الواقع في قرية قرحيّا بالضنيّة، وأن يكون الفاتحون المسلمون الأوائل للضنيّة قد فتحوا بدايةً هذا الموقع أو عسكروا فيه بالقرب من نهر ومقام النبيّ موسى المذكور آنفاً، حيث يشكّل مجرى النهر مدخلاً للمنطقة يربط الساحل بالداخل. والجامع لم يبقَ منه اليوم سوى حجارةٌ مبعثرةٌ في المكان تشكّل ما يشبه السّور الذي كان يحيط بالموقع المكشوف والذي تظلّله أشجار سنديان معمّرة، ولا يزال يُعرف لدى العامّة حتى يومنا بهذا الإسم.

أمّا عن المساجد القائمة في مختلف بلدات وقرى الضنيّة اليوم، فتعود بمعظمها إلى القرنين الثامن والتاسع عشر، وهي بمعظمها مساجد صغيرة أو مصليّات مبنية بالحجارة وبها محراب. ويعدّ مسجد بنو سيفا في قرية نمرين الأقدم عهداً بينها.

أمّا الكنائس فيعود بناؤها إلى نهاية القرن الـ19 ومطلع القرن الـ20 بعدما سمحت الدولة العثمانيّة للطوائف غير المسلمة والإرساليّات الأجنبية بناء أماكن عبادة جديدة لهم وصروح تعليمية، وذلك ضمن خطة الدولة للتطوّر والإنفتاح على الغرب والتي عُرفت بحقبة "التنظيمات". لذا نجد أن معظم تلك الكنائس يحمل نقشاً كتابياً يحمل تاريخ تلك الفترة. وتعدّ كنيسة مار سركيس وباخوس في قرية زغرتغرين أقدم الكنائس المارونية في الضنيّة، وكنيسة مار يوحنّا المعمدان في قرية عيمار أجملها.

المقامات الدينيّة والمقابر الإسلاميّة القديمة

1- مقام النبيّ يعقوب بقرية القطران في بلدة عاصون

2- مقام النبي موسى في قرية قرحيّا

3- مقام النبي مرمر في بلدة بطرماز

4- مقام الشيخ محمّد في بلدة بطرماز

5- مقبرة الشهداء في بلدة بطرماز (وهي غير ظاهرة معماريّاً وتقع بين حقول الزيتون، لكن الأهالي دائماً ما يعثرون فيها على بقايا عظام بشرية)

6- مقام / مغارة الشيخ محمّد في جبل بقرصونا

7- قبر الشيخ محمّد في قرية نمرين

8- مقبرة بني سيفا في قرية نمرين

9- مقبرة الأربعين (شهيداً؟) أعلى بلدة بقاع صفرين

10- ضريح الشيخ عمّار في مقبرة بلدة دير نبوح

المساجد الإسلاميّة القديمة (لا تزال بكاملها أو قسم منها مبنية بالحجر)

11- خراب الجامع العمريّ في قرية قرحيّا

12- مصلّى قرحيّا القديم

13- مسجد بني سيفا التاريخي (مسجد المحراب) في قرية نمرين

14- مسجد نمرين القديم (بقي منه كتابته التاريخية وضريح بانيه علي عربس)

15- مسجد بخعون القديم

16- مسجد سير القديم

17- مسجد الدلبة العتيقة في طاران

18- مسجد السوق القديم في بلدة بقاع صفرين

19- مسجد السوق القديم في بلدة عاصون

20- مسجد قرية بيت الفقس القديم

21- مسجد قرية إيزال القديم

22- مسجد قرية مراح سراج القديم

23- مصلّى النبي يعقوب بقرية القطران في بلدة عاصون

24- خراب المسجد القديم في قرية داريّا

المزارات الدينيّة والمقابر المسيحيّة القديمة

1- دير/مغارة مار يوحنّا التي ينبع من جانب قنطرتها "نبع العبدة" في بلدة كفرحبو، وقد بنيت في موقع كنيسة قروسطيَّة.

2- مقبرة بلدة عصيموت القديمة

الكنائس المسيحيّة القديمة (لا تزال مبنية بالحجارة)

3- خراب الكنيسة البيزنطيّة في قرية داريّا

4- كنيسة ومغارة مار سركيس وباخوس للموارنة في قرية زغرتغرين

5- كنيسة مار مخائيل للموارنة في قرية بتحلين

6- كنيسة مار مارون للموارنة في قرية مراح السفيرة (بنيت سنة 1887)

7- كنيسة مار يوحنّا المعمدان للموارنة قرية عيمار (بنيت سنة 1907 وبني برج جرسها سنة 1914)

8- كنيسة سيّدة الإنتقال للموارنة في قرية دير نبوح (أعيد بناؤها بالحجر مؤخّراً)

9- كنيسة مار جرجس في قرية بحويتا (بنيت سنة 1903)

10- كنيسة مار مورا للموارنة في قرية كهف الملّول

11- كنيسة النبيّ إيلياس للروم الأرثوذكس في الحارة التحتا ببلدة سير

12- كنيسة نياح السيّدة للروم الأرثوذكس في بلدة عاصون

13- كنيسة **القدِّيس جاورجيوس** للروم الأرثوذكس في بلدة كفرحبو

14- كنيسة **القدِّيس جاورجيوس** للروم الأرثوذكس في قرية الخرنوب

15- كنيسة الموارنة في قرية بشناتا

16- كنيسة الموارنة في قرية بشحارة

17- كنيسة الموارنة في قرية إيزال

18- كنيسة الموارنة في قرية القطّين

19- كنيسة الموارنة في قرية الحوّارة

20- خراب كنيسة بلدة عصيموت

21- **كنيسة القدِّيس نيقولاوس** للروم الأرثوذكس **في قرية حقل العزيمة (حديثة العهد 1955 بنيت بالحجارة)**

القرية اللبنانيّة التقليديّة وخصائص عمارتها السكنيّة

العمارة السكنيّة التقليديّة في لبنان بوجهٍ عام هي مزيجٌ من عمارة وتراث حضارات متعددة ومختلفة، فمنها الإغريقيّة والرومانيّة والبيزنطيّة وكذلك العربيّة الإسلاميّة، ولكنها أخيراً تؤدي الوظيفة المطلوبة وتعطي الغطاء الجمالي من خلال تفاعل وامتزاج ملامح وقيم إقليميّة ومستوردة وتدرُّج تراثي للحضارات المتعددة. وقد حاول المعماريّ والحِرَفيّ في لبنان أن يربط الحضارات المختلفة التي مرّت عليه بالواقع اللبناني بما فيه من عادات وتقاليد، ونجح في تحوير المستورد إلى وطني إقليمي، ومن هنا أصبحت العمارة اللبنانية يُطلق عليها تقليدية تِبعاً للربط المعماري المتسلسل بين عناصر التراث المختلفة في لبنان منذ أيامه الأولى وحتى يومنا هذا.

تعتبر التجمعات السكنية المنفصلة أو المتصلة بمثابة تكوين ناجح من حيث ترابطه مع الطبيعة وتناسقه معها، ومن حيث وجوده في مجموعة البيوت في البلدة أو القرية. وعناصر هذا التكوين البارع تكون في بساطة التصميم وتناسق الأحجام. وفي القرى اللبنانيّة التقليديّة يمكن رؤية تركُّب البيوت بعضها مع بعض بحيث تُشكِّل تلاعباً بين الفراغ والأحجام المقفلة دون أن يكون هناك ما يشوب هذا الربط. وكون الأرض الطبيعيّة في لبنان ذات انحدار في معظم الحالات، فإن هذا الشكل في الأرض يُكَوّن شرفات اصطناعية وتدرّج في الحدائق يزيد من روعة التشكيل.

ومع حلول القرن التاسع عشر واستعمال الأسقف القرميدية الحمراء في البيوت اللبنانيّة، فإن التكوين المعماري إزداد روعةً وجمالاً كون الأسطح كانت ذات مستويات بسيطة وهندسيّة ظهرت بشكلٍ غير معقّد. والعامل المثير للإهتمام هو علاقة الأحجام والمقاييس الإنسانية بعضها ببعض، فاستعمال الأحجار ذات القياس الموحد تقريباً يعطي إيحاءً بمدى الحجم ومقاييس الفتحات التي ترتبط بوجهة الإستعمال، حتى أماكن العبادة نادراً ما تبرز في التكوين العام مع أنها تختلف عن باقي التشكيل وأحياناً تذوب في المباني المجاورة لها ولا تُعرف إلا بواسطة برج الكنيسة أو مئذنة الجامع. ويغلب التواضع في العمارة اللبنانية وتشكيلها في القرية وهذا انعكاس لطبيعة السكان، ففي جولة قصيرة داخل شوارع القرية اللبنانيّة نرى تلاعباً بين التناقضات؛ الضيّق والواسع، الفاتح والغامق، المرتفع والمنخفض، المقفل والمفتوح.

لقد وجدت الهندسة المعمارية اللبنانية في الريف نفسها محصورة ضمن المواد والتكنولوجيا المتوفرة، فكان الحجر الكلسي الأبيض في الجبال اللبنانية، وحجر البازلت الأسود والقاسي الذي يسهل صقله في عكار ، والعمارة الطينيّة في البقاع، والبناء بالحجر الرملي في مدن وقرى الساحل. وهناك بعض المواد مشتركة في كثير من المناطق اللبنانية، كما توجد عناصر مختلفة للمساكن التي ظهرت في الجبال اللبنانية الشمالية والجنوبية وجبل لبنان حيث اشتركت في استعمال الحجر الجيري في بنائها.

وقد كان استعمال الحجر في المباني الريفية شائعاً في بناء الجدران ولكن السقف كان من الطين المخلوط بالتبن والذي كان يخضع لعملية الدحل في بداية كل فصل شتاء بسبب تعرضه للتشقق كل فترة. والطبيعة اللبنانية المتسعة القوية والجميلة قد تحوّلت تدريجياً بعمل "الجلالي" إلى هندسة رائعة أُدخِلت وكأنها خيوط ذهبية من عمل الجنس البشري في الطبيعة الواسعة، وكان لون المواد المستعملة هو لون مواد الطبقة الكلسيّة.

الأشكال التقليدية للعمارة اللبنانيّة عديدة ومتنوعة تتلاءم مع الإطار الاجتماعي ومع الأرض ومع الطبيعة، كل هذه الأشكال وُجِدت على الأراضي اللبنانية منذ المساكن البدائية التي تكاد تختلف عن مساكن الألف الثالث قبل الميلاد وحتى المساكن الأرُستقراطية المتطورة جداً. ولم تكن العمارة اللبنانية محصورة ضمن المواد المتوفرة فقط بل كانت محدّدة أيضاً من ناحية الشكل بطريقة لا يمكن تجاهلها، فعلى سبيل المثال النوافذ كانت تُفتح على المجاري الهوائية ونحو منظر البحر وقد كان لها مصاطب مسقوفة لتحميها من الشمس والمطر وتسمح بالحياة في فصل الصيف بحيث تستطيع أن تعيش خارج المنزل ضمن منطقة مظلّلة. وكانت الحوائط والأسقف تترابط بهندسية

مميّزة منفتحة على الخارج، ويعطي استعمال الفتحات المتشابهة ترابطاً شديداً كما يعطي التشابه أحياناً أشكالاً جيّدة الترابط. ويتخلّل كل ذلك عقود ثلاثية مرتفعة ولكنها مرتبطة بالتشكيل العام في موقعها وأحياناً في حجمها. وتوجد نسب هذه الفتحات والأحجام بشكل يزيد من روعة التكوين الفراغي العام بحيث يرتبط الإنسان بها دون أي شعور بالنفور. وتكون الوصلات في الأحجار غير بارزة اللون أو السمك بحيث لا تؤثر على الانطباع المراد بها إظهار الحائط الحجري كمساحة صلبة تفوق مساحة الفتحات.

هذه الدقة المتناهية التي أوجدت "تصميماً لبنانيّاً تقليدياً متطوراً" أعطت العمارة اللبنانية طابعها الخاص المميّز الذي خصّ القرية اللبنانيّة وأعطاها أجمل صورة، وهي بمثابة لوحة متكاملة ومتناسقة الألوان رُسمت بواسطة يد ماهرة تنم عن ذوق رفيع وتفكير متواضع.

- بيت حجري، سقف ترابي ومحدلة

البيوت ذات السقف الطيني أو كما يسمّيها العامّة في الضنيّة "سقف التراب"، هي البيوت التي لا تزال يحن لها القرويّون بسبب بساطتها ورمزيتها. ومن ذا الذي يريد بملء إرادته أن يهدم الغرف الدافئة التي نشأ بها أهله او أجداده. عددها أصبح قليلاً جداً وسكّان ما بقي معموراً منها قطعوا العقد الثامن من العمر، لكن بيوت التراب في الضنيّة ما زالت على قيد الحياة في عددٍ من القرى رغم أنها تنازع للبقاء والصمود.

تتميّز بسقفها الترابي القائم على جسور خشبية عبارة عن أجذع الأشجار الطبيعية، محمولةً على أعمدة خشبية تتوسط الغرفة وغالباً ما تكون ذات تاج بسيط مزخرف، أمّا المحدلة فدائماً قابعة على السقف. السنون التي مرت لم تهزها ولا التطور الذي لحق بجيرانها من المنازل الحديثة أثّر يوماً على شموخها وسطها. غالباً ما كان يستعمل هذا الحجر في البناء قديماً بالأخص في المناطق الجبلية المرتفعة فكان عازلاً فعالاً يحمي الغرف من برد الشتاء وحماوة الشمس في الصيف.

تراجعت نسبة إستخدام فعل "حدل" في السنوات الماضية مع تراجع وجود بيوت الطين التي استُبدلت ببيوت ذات عمار حديث وسقف من باطون أو من القرميد. أما تلك التي بقيت، فتقبع على سطحها محدلة. وتستعمل هذه الأداة في أيام المطر لحدل السقف وذلك منعاً لتشققه كونه مؤلفاً بالدرجة الأولى من التراب، وإن حدث تدخل المياه الى المنزل عبر هذه التشققات الصغيرة، فتكبر مع مرور الوقت لتؤدي الى إنهيار تام. تتألف المحدلة من حجر مستطيل مدوّر متصل بمسكة حديدية تساعد على دورانه. وللإشارة شاع استعمال المحدلة في حفلات الأعراس القديمة وكان رفعها من قبل العريس دلالة على قوته. يُحدل سقف المنزل خلال هطول المطر، أما أيام الصحو فيُمنع إستعمال الأداة وإلاّ هطل مطر من تراب داخل غرف البيت. ويمكن رؤية المحادل في كل قرى الضنيّة التراثية، إلاّ أن أحد المواطنين الهواة في قرية مراح السراج جمع عدداً كبيراً ومتنوعاً منها على سطح منزله وفي حديقته.

قبيل الحرب اللبنانية طرحت الدولة مشروعاً لاستبدال سقف الطين بسقف من الباطون على امتداد الوطن، لكن الحرب ألغت المخطط. يتميّز البيت اللبناني القديم بوسعه وعلو سقفه فكان يصل في بعض الأوقات الى الخمسة أو ستة أمتار. وفي فترة

البرد القارس تكون التدفئة في المنزل مركزية، كناية عن موقد على الحطب يتوسط الدار أو "غرفة" الشتاء كما تعوّد سكان الجبال على تسميتها. وباقي غرف المنزل تظل بلا تدفئة ويعتمد سكان المنزل في معظم الأحيان على أشعة الشمس في النهار والأغطية السميكة في الليل.

بلدات وقرى الضنيّة التقليدية وعمارتها التراثيّة

وفي جولة توثيقيّة في أنحاء الضنيّة، يمكننا بعد الدراسة تقسيم تخطيط البلدات والقرى الضنّاوية وعمارة المساكن فيها، والتي تعود بكاملها إلى الفترة المتأخرة من العصر العثماني (القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ما عدا بلدة بخعون التي تضم نماذج سكنيّة تعود للقرن السابع عشر)، بالتسلسل حسب مساحة حاراتها القديمة، على الشكل التالي:

1- **البلدات التقليدية الكبرى:** التي تتميّز بوجود سوق مركزي فيها حيث كانت تشكّل ممرّاً للقوافل ومركزاً للتجارة الزراعية، يتوسطه مسجد البلدة وساحتها، وتتميّز بوجود حارات سكنيّة فخمة شيّدتها العائلات الإقطاعية، تعكس خصائص البيت اللبناني الأرُستقراطي بقناطرها الثلاثية وقرميدها الأحمر وحدائقها الخارجية، بالإضافة إلى إنتشار البيوت البسيطة ذات الأسقف الترابيّة المحمولة على أعمدة وجسر خشبية مصنوعة من جذوع الشجر. وهذه البلدات هي:

- **بلدة سير الضنيّة**؛ المركز الإداري للضنيّة نهاية العصر العثمانيّ، وفيها السوق المركزي، والجامع القديم، وبيوت تقليدية وعمارات باطونية فرنسية وعدد من الفنادق والمطاعم القديمة في وسط البلدة، وحارة آل رعد في الحيّ العلوي منها، الذي يضمّ أجمل المباني السكنية وأفخمها في الضنيّة على الإطلاق والتي تعود إلى عهد الأغاويّة، والتي تحوّل قسم منها إلى دار للأيتام التابع لمجمّع "الضنيّة للرعاية والتنميّة".

- **بلدة بخعون**؛ وفيها سوق وحارة عتيقة تعود إلى أيام الأمير فخر الدين حيث البرج الذي يحمل اسمه والذي بني سنة 1618 وسُرقت مؤخّراً عتبة بابه التي كانت تحمل نقش الهلال والنجمة شعار الدولة العثمانية، وبالقرب من الحارة يقع مسجد البلدة الكبير، وكانت بخعون تشكّل مركز الحكم والإدارة للمنطقة خلال القرن السابع عشر والثامن عشر، لذا يقع فيها بناء السراي العثمانية التي تحوّلت اليوم إلى مدرسة. كما تقع فيها حارة علوية تمتاز ببيوتها الفخمة التي تعود لنهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهي أبنية مستقلة تحيط بها حدائق، تعود بمعظمها لآل الصمد، وقد هُدم بعضها أمام التمدّد العمراني، كما لا تزال أعمال هدم بعضها الآخر مستمراً حتى وقت إعداد هذه الدراسة، وهو أمرٌ يؤسف له. وقد عُثر تحت الأرض منذ أعوام، أثناء هدم أحد البيوت التراثية عند مدخل السوق القديم وسط البلدة، على حجر دائري ضخم يعود لمعصرة زيتون أو عنب وأبقي عليه معروضاً في الجوار.

- **بلدة عاصون**؛ وفيها سوق مركزي وحارتان في وسطها، مسيحيّة وإسلامية، يقع ضمنها المسجد المركزي والساحة، وحارة أخرى مسيحيّة في الحيّ العلوي من البلدة، وهو شبه مهجور حالياً، تقع خارجه الكنيسة.

- **بلدة بطرماز**؛ فيها حارة مغلقة ومحصّنة يتوسطها فِناء، تضم بيوتاً فخمة تعود لآل ناغي، تُعدّ من أقدم وأجمل نماذج الدور الكبيرة في الضنيّة التي تعود إلى مطلع القرن الثامن عشر، معظمها مخرّب من الداخل وأسقفها منهارة حاليّاً.
- **بلدة طاران**؛ فيها حارة قديمة وسوق صغير ومسجد الدلبة العتيقة، وتمتاز حاراتها بتركّب بيوتاتها على التلّة المشرفة على الوادي، وبطرقاتها المتعرجة وأدراجها وممرّاتها الضيّقة.
- **بقاع صفرين**؛ وفيها السوق المركزي الذي تطوّر نهاية القرن التاسع عشر وخلال فترة الإحتلال الفرنسي، يتوسطه مسجد البلدة، وتقع خلفه إلى الداخل حارات البلدة القديمة المميّزة بطرقاتها الضيّقة والمتعرجّة، أمّا بيوتها فبسيطة ترابية، ما عدا تلك الواقعة في السوق فهي تعرض أولى نماذج الأبنية الباطونية الفرنسية في المنطقة.

2- **القرى التقليديّة المتوسّطة الحجم**: التي تمتاز بحاراتها الصغيرة وحافظت على عددٍ من بيوتها التراثيّة البسيطة المبنية بالحجارة والأسقف الترابية، وبوجود المسجد الصغير أو الكنيسة في وسطها. ويمكن تعدادها على الشكل التالي:

- **قرية دير نبوح**؛ وفيها مسجد وكنيسة وعددٌ من البيوت الحجرية، إضافة إلى جسر حجري من قنطرتين لجرّ المياه فوق الوادي يعرف بجسر القنطرة، ويعدّ أكبر جسر قديم في الضنيّة.
- **قرية إيزال**؛ وفيها مسجد وكنيسة وعددٌ من البيوت التراثية.
- **قرية عيمار**؛ وفيها كنيسة قديمة تعدّ من أجمل كنائس الضنّية وحي سكني صغير، وطاحونة.

- **قرية بحويتا**؛ وفيها كنيسة قديمة وحيّ سكنيّ صغير مميّز ببيوتاته التراثية الجميلة أحدها يعلوه قرميد.

- **قرية بيت الفقس**؛ وفيها مسجد قديم وبيوت ذات أسقف ترابية ودلبة عتيقة تم بترها.

- **قرية كفر حبو**؛ وفيها كنيسة قديمة وعدد من البيوت التراثية أقدمها يعود لآل بيطار، وبيت يعود لعائلة بو ضلع مميّز بعتبة بابه الحجرية التي تحمل نقشاً للهلا والنجمة والصليب في آن، كما تمر فوق وادي القرية قنطرة حجرية من عين واحدة لجرّ المياه بناها أغوات آل رعد وآل الآغا ضمن أراضيهم الزراعية.

- **قرية مراح السراج**؛ وفيها مسجد قديم صغير وعدد من البيوت الترابية القديمة العهد وأخرى أحدث منها تشكّل حيّاً متماسكاً تتخلّله أدراج وممرّات مسقوفة ببعض البيوتات المعلّقة.

- **قرية بيت حاويك**؛ وفيها عددٌ من البيوت الترابية المميّزة، ومسجد السنديانة المعمّرة.

- **قرية مراح السفيرة**؛ وفيها كنيسة قديمة بها محابس، وعدد من البيوت التراثية، أفخمها دار مهجورة مهدّم سقفها تعود إلى حنّا لطّوف.

3- **القرى التقليدية الصغيرة**: وهي التي لا تزال تحتفظ بعدد قليل من البيوت التراثية البسيطة، والتي لا يتجاوز عددها أصابع اليدّ، وهي:

- **قرية نمرين**؛ وفيها مسجد أساسه قديم وعددٌ من البيوت الترابية التراثية.

- **قرية حقل العزيمة**؛ وفي الوادي على النهر يوجد فيها جسر حجري من قنطرة واحدة وطاحونة صغيرة.

- **قرية كهف الملّول**؛ فيها كنيسة قديمة وعددٌ من البيوت الحجرية ذات الأسقف الترابية.
- **قرية بشحّارة**؛ وفيها كنيسة وعددٌ من البيوت التراثية المهدمة.
- **قرية بشنّاتا**؛ وفيها كنيسة وعددٌ من البيوت الترابية المهدمة.
- **قرية الخرنوب**؛ وفيها كنيسة قديمة وعددٌ من البيوت التراثية.
- **قرية القطّين**؛ وفيها كنيسة قديمة وعددٌ من البيوت التراثية.
- **قرية القرين**؛ وفيها عددٌ من البيوت الحجرية التراثية.
- **قرية القمامين**؛ وفيها عددٌ من البيوت الترابية التراثية.
- **قرية جيرون و وادي سرّي**؛ فيها عددٌ من البيوت الترابية التراثية.
- **موقع المزيرعة في خراج قرية بتحلين**: فيه 3 بيوت حجرية مهجورة.

4- القرى التراثية المهجورة كلياً أو جزئياً وتحمل مزايا أثرية: وهي قرى هُجرت بالكامل، إمّا قديماً لأسباب مجهولة، إمّا حديثاً بسبب الحرب الأهلية التي دارت في البلاد، وهي حسب أهميتها التراثية على الشكل التالي:

- **قرية داريّا**؛ هُجرت منذ مئة عام أو أكثر كما يظهر من بقايا بيوتاتها المنتشرة على امتداد التلة المطلّة على الوادي من ثلاثة جهات، وهي واحدة من أقدم القرى في الضنيّة كما يبدو من بقايا معبدها الذي يظهر وكأنه كنيسة ضاربة في التاريخ وربما تعود للحقبة البيزنطيّة، وتشكّل إن صحّ ذلك أقدم معلم ديني مسيحيّ في الضنية، حيث عثرنا على حجر كبير مكسور يحمل نقشاً يشبه الصليب، كما على عدد من الأجران المستطيلة والمصاطب الحجرية، وتتألف مداميك البناء من حجارة ضخمة

ناتئة من الوسط، تعدّ الأضخم في الضنيّة وتضاهي بحجمها حجارة معابد السفيرة الرومانية، ويرجّح أنها تعود لحقبة الرومان وتؤرّخ لوجود معبد في نفس المكان قبل إنشاء الكنيسة. ويقع بجوارها في الأرض حفرة كبيرة بيضاوية الشكل محفورة في الصخر لا يُعرف إلى أين تؤديّ. ويوجد في البلدة أيضاً خراب مسجد مكشوفٍ في الهواء، كما يروي الأهالي في الجوار، يقع أسفل السنديانة والدلبة المعمرتان عند مدخل القرية، ولا تزال عدة حجارة مقنطرة منها مبعثرة تحت الشجرتين.

- **قرية عصيموت**؛ قرية مسيحيّة كانت بيوتها ممتدّة في الحيّ السفلي من البلدة، إلى أن هُجرت لأسباب مجهولة منذ أكثر من قرن وانتقل من تبقى من سكانها إلى الحيّ العلوي حيث نجد عدداً من البيوت الحجرية ذات الأسقف الترابية، كلها مهجورة اليوم ما عدا دار واحدة. وفي الحي السفلي وبين بيوتاته الحجرية المخرّبة، يوجد مقبرة بها العديد من مصاطب القبور غير الإسلامية منتشرة تحت شجر الدلب المعمّرة، وبقايا معبد قيل إنه يهودي وقيل إنه بقايا كنيسة قديمة، والإحتمال الثاني هو المرجّح.

- **قرية حوّارة**؛ قرية مسيحيّة في الأساس تركها ساكنوها بسبب بعدها وعدم توافر وسائل الحياة فيها في حينه خلال خمسينيّات القرن الماضي وانتقلوا إلى بلدة أخرى في قضاء زغرتا، تاركين وراءهم عدداً من البيوت الترابية المهدمة وكنيسة صغيرة تتوسطها. وقد استقرت بعض العائلات التركمانية في القرية وأنشأوا حيّاً جديداً ملاصقاً للحيّ المسيحي المهجور. وقد عثروا أثناء حفرهم أساس أحد الأبنية على جرن كبير منحوت من قطعة حجرية واحدة، يعود لمعصرة قديمة وربما رومانيّة.

تعرّضت العمارة التراثية في الضنيّة بدءاً من منتصف القرن الماضي لمختلف أنواع التشويه والإهمال والهدم المتعمّد، ولا يزال العديد من مساكنها عرضةً للهدم بهدف

إنشاء أبنية باطونية مكانها. وقد وقفنا على عدّة أعمال هدم متعمّد لعددٍ منها في بلدات بخعون وسير، وكلها مع الأسف مرخّصة من البلديات المعنية. الأمر الذي يستدعي أن يكون هدف هذه الدراسة هو الحفاظ على ما تبقى من هذه الأبنية الجميلة والسعي عبر اتحاد البلديّات إلى تصنيفها جميعاً كأبنية تراثية محمية بموجب القانون ويمنع هدمها. وكانت مجلّة "صدى الضنيّة" قد أعدّت تحقيقاً تحت عنوان "المباني التراثية في الضنيّة من ينقذ ما تبقى منها؟ إهمال مقصود وجشع تجاري آخذٌ بالاتساع"، صدر في عددها الثامن شهر آب 2015، نورد في ما يلي قسماً مهماً منه:

"المباني التراثية في الضنيّة من ينقذ ما تبقى منها؟ إهمال مقصود وجشع تجاري آخذٌ بالاتساع"

....

- ***مساكن الأغاوات في سير:***

تاريخياً تُعتبر بلدة سير مركز قضاء الضنية، وفيها عدد كبير من المباني التي تعود إلى عهد الأغاوية، ومع أفول ذلك العصر، ترك عدد كبير من ورثة الأغاوات بلدته ونزحوا عنها، تاركين القصور وبيوت العقد والقرميد الأحمر وحيدة، يحيطها الصمت والغبار.

وفي سوق سير القديم، يتناقل السكان اليوم شائعات مفادها أن أحد بيوت العقد التي يمتلكها آل رعد، ستباع لأحد تجار البناء، من أجل هدمها وإقامة مبنى شاهق. في المقابل تنفي مصادر العائلة ذلك مشيرة الى استمرار ملكية آل رعد للمبنى المملوك من المرحومين عمر قاسم رعد وشقيقه عبد الرحمن رعد، مع ترجيح عرضه للبيع. و تلفت المصادر نفسها أن مجموعة البيوت التي يمتلكها آل رعد في سير لا يقل

عمرهاعن مئة سنة، مضيفةً أن هناك بيوتاً أقدم بكثير إذ أن البيت الذي اشتراه د. الصياح لا يقل عمره عن المئتي سنة.

وعن سبب إهمال هذه البيوت التي كانت في يوم من الأيام مركز الأغاوية وبالرغم من استمرار وجود آل رعد، يُعلّق السيّد راغب رعد «أن أغلبية البيوت قد تركها الأبناء بعد موت الآباء وسافروا ونقلوا عملهم للخارج». وعما إذا كانت العائلة تُفكر بترميم هذه البيوت التراثية ذات القيمة، خصوصاً وأن العائلة ما زالت حاضرة ويتمتع بعض أفرادها بحالة ميسورة، يجيب السيد رعد «هذا الموضوع شخصي، كل فرد يبادر بصورة فردية ولا يتم العمل فيه على أساس عائلي، فرابطة آل رعد لا تتدخل في هذا الشأن على الإطلاق». ويشير أنه لم يتم إحصاء هذه البيوت، وأنأفراد العائلة عندما كانوا أصحاب شأن لم يكونوا كتلة موحدة، أغلبيتهم لا يهمهم تجديد إرث العائلة، همهم بات محصوراً بتعليم أولادهم وتأمين فرص عمل لائقة. ويشير إلى انحسار النزعة العائلية بالفقراء الذين يتغنون بالبيك والآغا، أما « المستقرشين» لا تهمهم، فهناك ناس من بيت رعد لا يعرفون ما الفرق بين البيك والأغا».

- **داخل المبنى القديم:**

وفي زيارة لذلك البيت الأثري، يمكنك التأكد من سلامة البناء، بإستثناء السقف الذي هبط بفعل الزمن والإهمال، قبل باب المدخل توجد باحة واسعة يتوسطها بحرة ونافورة ماء، ومن ثم تنتقل الى الداخل بباب مشرع، في الداخل تجد الموقدة ما زالت مكانها منتصبة بانتظار موسم المطر، وكذلك فتحة التهوئة في أعلى الجدار، أما الجدران المطلية بالدهان الأخضر الفاتح، فتفتقد إلى صور أهل البيت الذين هجروها، وحده السقف المتهالك والأعشاب النامية تروي لك قصة الزمن، أما العقد المرصوف

بدقة فما زال قائماً حتى اللحظة. ويؤكد بعض السكان في محيطه أن الترميم ما زال ممكناً بسبب قوة الأساسات وأن العقد ما زال قائماً . ويتساءل بعض الأهالي عن سبب ترك هذا البناء وإهماله، ويتردد القول: «من يمكنه اليوم تشييد بناء كهذا؟ وهل سيترك ليدمر وتباع أحجاره بالمفرق».

وما يلفت النظر في أنحاء الضنية إقامة طوابق إضافية فوق البيوت الحجرية القديمة، تشوه الطابع القديم للأبنية القديمة. ويحمّل بعض الأهالي الورثة مسؤولية الإهمال الذي تعرضت له هذه المباني، فالخلاف بينهم على تقاسم التركة والنزوح من البلدة أدى إلى الحالة الرديئة التي تعانيها. ويلفت مراقبون أن أسلوب ترك المباني مهملة الى أن تسقط ومن ثم تشييد مرافق جديدة مكانها عوضاً عن ترميمها والمحافظة عليها، بات نمطاً معتمداً في أكثر من منطقة لبنانية، ويمكن ملاحظته بسهولة في مدينة طرابلس حيث وعلى سبيل المثال ترك مسرح الـ"إنجا" ليهبط من أجل تحويله الى موقف للسيارات وبالرغم من كل الوعود التي أطلقها المستثمرون فالمبنى لم يعد موجوداً إلا في صور ساحة التل القديمة.

- **منازل صامدة:**

وفي جولة موازية في سير، تنبهر بالنظر إلى بعض المنازل التي تعود إلى عهد الآغاوية والتي نجت من المد العمراني السريع، ويأتي بمقدمها مجموعة البيوت التي تم تحويلها إلى مركز مؤسسات الرعاية الإجتماعية: دار الأيتام الإسلامية والتي توسط نزار رعد حفيد جزار رعد لبيعها، وتم ترميمها بهبة من الرئيس نجيب ميقاتي، وكذلك أحد المنازل التي اشتراها د. جميل الصياح ورممه وحافظ عليه، بالإضافة إلى بيت سرحان رعد، أما

منزل ملحم بيك رعد والذي يُوصف بالأهم على الإطلاق حسب البعض، فهو ما زال قائماً بالرغم من كونه غير مسكون بصورة دائمة، والذي نادراً ما يأتي مالكوه ، كما يتغني العارفون ببيت د. بلال الصياح الذي يعتبر نموذجاً عمرانياً نادراً.

ويروي أحد الأشخاص خبرية تبرز مدى جهل البعض بقيمة هذه الأماكن، يقول إنه إشترى مكاناً قديماً وقام بتنقيره لإعادة إبراز الحجر والعقد القديم الأصلي، وعندما جاءه أحد البنائين قال له كم تدفع لي لأُلبّس لك هذا المكان بالطين والإسمنت، فيجيبه إنه دفع آلاف الدولارات لكي يُعيده إلى حالته الأولى وهو يطلب منه طمس جماله مجدداً؟!

- **خربة بخعون:**

وفي بلدة بخعون أصبحت المنطقة القديمة والتي كانت قلب الضيعة تعرف بال" خربة"، والتي هدم جزء من بيوت العقد التي كانت قائمة فيها عند توسيع الطريق وفتح الأوتوستراد، وكذلك فإن بعض البيوت التي ما زالت قائمة اليوم متروكة للتداعي، يغطيها الغبار والركام، ويؤكد الأهالي أن أحد المنازل سقط منذ سنتين بفعل هطول المطر الغزير.

وتستمر العديد من العائلات البخعونية السكن في الضيعة القديمة، والمحافظة على بيوتها، في حين قامت بعض العائلات بهدم الأبنية الحجرية لإنشاء أبنية جديدة، كما حصل في أحد البيوت التي يمتلكها آل هللو والذي يقع بمكان قريب من الأوتوستراد الجديد.

وفي بلدة عاصون تحولت المباني القديمة المهملة الى مأوى للنازحين السوريين، حيث أصلحوها بما تيسر لهم وسكنوها عوضاً عن البقاء في العراء. وترتبط مشكلة البيوت الحجرية القديمة في بلدة عاصون بنزوح العديد من العوائل المسيحية عن البلدة وتركهم لها، وعدم إصلاح ما تخرب من أبواب ونوافذ أو إقفالها بالباطون وبلوكات الخفان لمنع المتسللين من الدخول إليها.

أنواع الأبنية الأثريّة والتراثيّة التي تمّ توثيقها في الضنيّة

تختلف الأبنية الأثرية والتراثية في الضنية بين حربية، ودينيّة، وسكنيّة، وإداريّة، ومائيّة.. وغيرها، ويمكن تعداد أنواعها على الشكل التالي:

1- المعابد الرومانية

2- المدافن الرومانية

3- القلاع الصخرية

4- الأبراج الحربية

5- مواقع ثكنات حربية

6- السرايات

7- المقابر والنواويس المحفورة في الصخور

8- المقابر في الهواء الطلق

9- المقامات الدينيّة

10- الجوامع والمساجد والمصلّيات

11- الكنائس والأديرة

12- المزارات

13- الطواحين

14- المعاصر

15- الأبيرة

16- خزانات مياه

17- قناطر المياه

18- الجسور

19- الطرقات المبنية

20- القصور

21- الحارات والدور

22- البيوت الترابية

23- الأسواق

24- الفنادق